خالد البري

http://www.daralnadwa.com

الدنيا أجمل من الجنة

سيرة أصولي مصري

تمهيد

لم أظن يوما أن تجربتي مع " الجماعة الإسلامية " تهم أحدا ، أو أن فيها ما يهم أحدا . فلست أكثر من شخص بين مئات ألوف مثلي كانوا يوما "ملتزمين" في صفوف جماعة إسلامية ما . كما أنني لم أكن شخصا ذا شأن في صفوف تلك الجماعة كأولئك الذين يظهرون من حين إلى آخر على شاشات التلفزة ليتحدثوا ــ كمن يملي اعترافا في تحقيق أمني ــ عن معسكرات الإعداد العسكري التي شاركوا فيها في أفغانستان أو عن الممارسات الاجتماعية الغريبة التي رأوها في صفوف الجماعة في ما يخص الزواج وسلطة الأمير وما شابه .

بكل بساطة ، أنا لم أشارك في تدريبات " جهادية " ، وليس في جعبتي حكايات غريبة عن الأمراء الذين يتزوجون من بدا لهم من أقارب " الأتباع " . فماذا لديّ ؟ ولماذا يهتم أحد بحكايات " عادية " لإنسان " عادي " ؟

****

ولدت في أسيوط في صعيد مصر ، حيث يقيم أهلي ، فتلقيت دروسي الابتدائية في مدرسة الراهبات الفرنسيسكان ، ودرست الطب في جامعة أسيوط ثم في جامعة القاهرة حيث تخرجت عام ١٩٩٧م . وفي منتصف الثمانينات من القرن المنصرم صرت عضوا ناشطا في " الجماعة الإسلامية " ، فأكسبتني تجربتي هذه خبرات ومزايا شخصية كثيرة : تخلصت من خجل طفولي كان يتشبث بي ، تعلمت الخطابة في المساجد ، وفنون الدعاية والتأطير الحزبي ، وصرت على صلة وثيقة بالفقه الإسلامي .... ثم أفضت بي تجربتي إلى الاعتقال .

بعد خروجي من السجن تابعة دراستي في كلية الطب ، فتخرجت منها طبيبا ، لكنني سرعان ما اكتشفت أنني لم أخلق لأمارس المهنة التي تخصصت فيها ، وقررت أن أعمل في الصحافة ، وكثفت قراءاتي في علم الاجتماع والانثروبولوجيا.

***

متسكعا في شوارع القاهرة ، رحت في وقت ما من العام ١٩٨٨م أبحث عن منشورة تهتم في ما أكتب : صحيفة من تلك الصحف السرية التي تظهر لشهور ثم تغيب (قبل أن تدفع للصحافيين بدلا في أغلب الأحوال) ؛ مجلة عربية تريد موضوعا عن نصائح للزوجة لكي تسعد زوجها ، أو مؤلف كتب رياضية يريد مقالا عن بطولات نادي الزمالك الأفريقية . وفي ذلك الوقت عرفت زميلا يعمل محررا في جريدة " العائلة " وقابلته في مقر عمله ، فسألني عما أستطيع أن أكتب ، ورددت بالإجابة المعتادة : أي حاجة !

أردت أن أقول أي حاجة " تجيب فلوس " ، فليس الآن مجال انتقاء نوع المواضيع التي أحب أن أكتب فيها . المهم ، اقترح عليّ الزميل ، لعلمه بأني كنت يوما إسلاميا ، أن أكتب عن تجربتي مع " الجماعة الإسلامية " ، وكان ردي أن تجربتي ليس فيها ما يهم أحدا ، لأني كنت شخصا عاديا ، كما أنني غير مستعد ــ لغرض إثارة الانتباه ــ للافتراء على أناس عايشتهم سنوات فما وجدتهم غير بشر ، لا ملائكة ولا شياطين . وانتهى الحديث بأن طلب من الزميل أن أفكر في الأمر.

أبعدت الفكرة من رأسي وكتبت موضوعا عن تاريخ شارع قصر النيل ، وآخر عن تاريخ حي الزمالك ، وبدأت في إعداد موضوع عن علاقة عبد الناصر بمجلس قيادة الثورة . وفي زحام تلك المواضيع التي لا تلقى إقبالا لطابعها التاريخي ، قلت لنفسي وأنا جالس في مقهى " زهرة البستان " : لماذا لا أكتب شيئا عن تجربتي مع " الجماعة الإسلامية " ، لأختبر كيف يمكن كتابة مثل هذه التجربة؟

***

حمدت الله لأن ما كتبته لم ينشر بعد ذلك في جريدة " العائلة " ، إذ صدور العدد الذي نشرت فيه مقالتي . وسبب سعادتي أن الزملاء في الجريدة اختاروا لما كتبت عنوانا رئيسيا : " أنا والجماعة الإسلامية وميادة الحناوي " ، جريا على عادة الصحافة المصرية الراهنة في ابتذال عناوين موضوعاتها وتسفيهها ، على اعتبار

أن مثل هذه العناوين تجذب القراء وتثيرهم . وبعد شهور طويلة ، أي في أواخر أيار ١٩٩٩م ، التقيت في مؤتمر عقد في القاهرة باللبنانية ليليان داود التي شاركت في ذلك المؤتمر ، فأعطيتها المقال لتقرأه من باب التعارف . ومن بيروت اتصلت بي ليليان بعد مدة لتخبرني أن أستاذها في الجامعة اللبنانية ، وضاح شرارة ، أبدى اهتماما بما كتبت .

وحين حملتني الصدفة يوما على شراء عدد من صحيفة " الحياة " ، وجدت فيه تعليقا لوضاح شرارة على ما كتبت ونشر في " الملحق " الأسبوعي لصحيفة "النهار" تحت عنوان " الدنيا أجمل من الجنة ــ أصولي مصري يروي سيرته مع الجماعة الإسلامية " .

***

في آب من ذلك العام (١٩٩٩م) زرت لبنان للمرة الأولى ، والتقيت محمد أبي سمرا المحرر في " الملحق " ، فاقترح أن أتابع كتابة سيرته الكاملة كأصولي في صفوف " الجماعة " ، ففعلت وأنجزت الكتاب بعد سنة . لذا أجدني ممتنا لاهتمام وضاح شرارة بما كتبت ، وأشكر ليليان داود ومحمد أبي سمرا على ما فعلا ليبصر هذا الكتاب النور .

أخيرا لن أخفي شعوري بالألم لأنني رويت أخبار أشخاص عايشتهم زمنا طويلا في أفراحهم وأحزانهم ، ولأن أحدا منهم قد يفهم خطأ أنني أريد له الشر في ما رويت . ثم إنني أتألم إذا ما فهم قراء هذا الكتاب أن أولئك الذين كانوا "إخوتي" في "الجماعة" هم أسوأ الناس طرا .

لكن آلامي هذه لا تحملني على الاعتذار ، ولن توقفني عن الكلام .

لندن ــ ٥-١٢-٢٠٠٠م

الفصل الأول
الهداية

في ذلك النهار من عام ١٩٨٦م ، كنت أمارس هوايتي المفضلة في لعب كرة القدم ، حين انساق بنا الكلام على " الجماعة الإسلامية " وعلاقتها بحوادث العنف التي تشهدها أسيوط في تلك الفترة . أنا لم ألق ما أقوله سوى عبارة سمعتها من أبي : "عبد الناصر هو اللي فهمهم وحطهم في السجن. لو كان سابهم كانوا قتلوه زي ما قتلوا السادات " .

لم يكترث أحد لما قلته ، واستمر الجميع يتحادثون في حماسة عن وجوب إقامة دولة إسلامية تحكم بشرع الله ، وتحفظ كرامة المسلمين وتدافع عنهم في وجه الظلم الذي يتعرضون له في الأرض كلها . بعضهم ردد قائلا أن مسألة إقامة دولة الدولة الإسلامية ليست اختيارية ، بل هي فرض إلهي ليس من حقنا رفضه أو حتى مناقشته ، لأن " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" .

بعد اللقاء انفرد بي أحد المتحدثين ، وهو من سكان شارع قريب لم تكن علاقتي به حتى ذلك اليوم ترقى إلى اعتباره صديقا . حدثني عن " الإخوة " حديثا مبهورا بأفعالهم و" بطولاتهم " و" العزة " التي أكسبهم إياها التزامهم بدينهم ، لأن " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " . ثم وعدني بإهدائي " جنزير" دراجة هوائية لاستخدامه بغرض الضرب في أثناء العراك .

كنت أضعف صبي في الشارع من حيث القوة البدنية ، وضعفي هذا جنبني الدخول في مشاجرات ، حتى تلك التي يحاول الآخرون فرضها عليّ أو استدارجي إليها . وقبل ثلاث سنوات ظهر بين رفاق شارعنا فتى لم يكن يشاركنا اللعب من قبل . كان يكبرنا سنا ويفوقنا خبرة في تجاربه الجنسية ، وفي رفقته عصابة يشاركها الخمر والحشيش . وكثيرا ما كان يلجأ إلى عصابته لتأديب خصومه ، كما إلى إرهابنا كلما رغب ، ومن دون حاجة إلى سبب . كم كان يشعرني أن كل شيء يتضاءل حيال أن أكون قويا . فحتى الأطفال بهم ميل فطري إلى كسب

صداقة الأقوياء ، والالتحاق بهم ، والوقوف إلى جانبهم طعما في اكتساب الحظوة والقوة ، لذا بت طوال الليل أحلم بتلك الآلة السحرية (الجنزير) التي ستريحني من ضغط انتقاص قوة الآخرين من كرامتي ، بلا ذنب سوى كوني ضعيف البنية .

وتسير الأقدار متشابكة ، فقد مضى الغد وبعد الغد ولم أر وجه صاحب الجنزير . لكن طالبين ملتحيين كنت قد قابلتهما من قبل في ملعب كرة القدم استأجرا إحدى غرف الطلبة في البناية التي نملكها . ذهبت إلى الغرفة لأسلم عليهما فإذا بأحدهما يمسك مطواة (قرن غزال) محاولا أن يزيل بها ظفر إصبع قدمه الكبير ، وهو يحادثني ضاحكا كأنه لا يفعل شيئا ، فبهرتني قدرته على التحمل . وما أن رأيت صاحب الجنزير ثانية حتى حكيت له ما كان من أمر صاحب الغرفة ، فعقب على كلامي واصفا من أكلمه عنه بأنه أخ فاضل ، تقي وورع . وهذا ما أكمل لدي الفكرة المثالية عن القوي الخلوق ، وأرضى نزعتي الرومانسية إلى الخلق الطيب والقوة كليهما معا (منذ عايشت المثقفين العلمانيين لم أسمع أحدهم يذكر أخاه في غيبته بكلام طيب) .

حتى ذلك الوقت كنت وطنيا مراهقا لا أعرف كثيرا عن الدول العظمى والصغرى والتوازنات والحسابات . كنت أردد العبارات الشائعة عن " الشعب العربي الواحد" ، وأن العرب قوم يشتهرون بالعزة والإباء والكرامة والوفاء للصديق ، " ولا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم ط ، و" أمجاد يا عرب أمجاد" . كنت أستمع كثيرا إلى خطب عبد الناصر وأغاني عبد الحليم حافظ الوطنية ، وأكره السادات " وكامب ديفيد" وإسرائيل بلا تفاصيل .

وفي السنة الدراسية السابقة جاءتنا خرائط جديدة مكتوب عليها إسرائيل بدلا من فلسطين ، فاعترضنا ورفضنا أن تعلق هذه الخرائط في صفنا فاستجابت الإدارة ورفعتها .

الصلاة والتلفزيون :

اقتصرت معرفتي بأفراد " الجماعة الإسلامية " في الفترة التالية على لعب كرة القدم صباح كل يوم جمعة . وبدأت أعرف بعضهم وأتجاذب أطراف الحديث معهم

، ثم أذهب وإياهم ، أحيانا ، إلى المسجد لأداء الصلاة . وفي تلك الفترة سمعت حكايات كثيرة عن " إخوة " كانوا منحرفين وهداهم الله ، وأخرى عن حوادث حصلت لهم مع رجال الأمن .

بعد حوالي شهر من بداية تعرفي بأفراد الجماعة انتقلت إلى القاهرة لقضاء العطلة الصيفية ، وهناك توقفت عن الصلاة نهائيا ، حتى صلاة الجمعة ، ولما عدت من القاهرة حاولت أن أواظب علا الصلاة لكنني لم أستطع ، حتى قابلني أحد الإخوة واستفسر عن سبب تغيبي عن المسجد ثم سألني : " بذلك يا شيخ أنت بتصلي ؟ " لم أستطع الإجابة ، فقد تعلمت في مدرسة الراهبات الفرنسيسكان التي درست فيها في صغري ، أن كل شيء في الدنيا يمكن التجاوز عنه إلا الكذب .

بعد هذه الواقعة بدأت أحاول المواظبة على الصلاة والذهاب إلى المسجد من وقت إلى آخر . هناك تعرفت على الشيخ طارق أحد أطيب الناس وأخلصهم بين من قابلتهم في حياتي . اتفق معنا الشيخ طارق على تنظيم حلقات دروس يومية في المسجد لنتعلم فيها مبادئ الفقه والسنة والسيرة النبوية . وكلها دروس ترسي مبادئ الفقه والسنة والسيرة النبوية . وكلها دروس ترسي مبادئ عامة ولا تشير إلى فكرة " الجماعة الإسلامية " على وجه الخصوص .

كنت أحيانا أتخلف عن دروس الشيخ طارق بسبب الأفلام الأجنبية أو مباريات كرة القدم التي يعرضها التلفزيون في مواقيت صلاة العصر . ويبدو أن الشيخ طارق أدرك ذلك ، فطلب مني أن أعد موضوعا يتناول حكم الإسلام في الغناء لكي ألقيه على زملائي في حلقة الدرس . ولما قلت له إنني لا أستطيع ذلك لأني أحب الغناء جداً ولا أتخيلني ممتنعا عنه ، قال لي " ومن طلب منك أن تمتنع عنه ، فقط ابحث عن الأحاديث والآيات القرآنية التي تتحدث عن الغناء وانظر كيف فسرها العلماء واعرض علينا الأمر " ثم أعطاني كتاب " تلبيس إبليس " ليعينني في مهمتي .

جلست أستمع إلى ميادة الحناوي وأنا أقلب صفحات الكتاب وأدون الآراء على ورقة . ولما انتهيت ، ظللت أستمع إلى الأغنية حتى أذان الظهر ، فذهبت إلى

المسجد لأصلي ، ثم جلست إلى حلقة الدرس وأمسكت الورقة بيد مرتعشة وقرأت ما كتبته . وبعد انتهاء الدرس هنأني الشيخ طارق على جودة ما كتبته وأثنى على الجهد الذي بذلته . لكنه نبهني إلى أنني قد أصبحت عالما بهذه النقطة ، وأن يضع عليّ مسؤولية أكبر ، ويجعل حسابي عند الله أشد إن عصيته وأنا عالم بحكمه غير جاهل به .

حين عدت إلى المنزل كنت قد حزمت أمري على محو كل شرائط الغناء التي أملكها ، ففعلت وسجلت عليها تلاوات من القرآن . فعلت ذلك بالشرائط كلها ، ما عدا شريط عبد الحليم حافظ في أغانيه الوطنية.

بعد ذلك بأسبوعين تخلفت عن صلاة العصر لأشاهد مسرحية " ريا وسكينة " . وفي هذه المرة تولى الشيخ طارق بنفسه شرح الحكم الشرعي في حق من ينظر إلى المرأة التي لا تستر جسدها ، ومن ثم عرج على تحريم مشاهدة التلفزيون ، ومرة ثانية اتخذت قرارا بالامتناع عن مشاهدة التلفزيون ، وسوف أظل ممتنعا عن مشاهدة مدة خمس سنوات .

البراءة من الكفار :

اتفقنا مع أصدقائنا في الشارع الذي يسكن فيه صاحب الجنزير على إقامة مباراة في كرة القدم بين فريقي شارعينا . ذهبت إلى الملعب متأخرا ، وفي الطريق التقيت أحد أعضاء الفريق عائدا يبكي ، فقال لي إن فريق الشارع الآخر تشاجروا معه ورفضوا أن يشاركهم اللعب لأنه مسيحي ، فاحتج فريقنا كله ورفض اللعب في المباراة . وعندما قابلت الشيخ طارق شكوت له تصرف أولئك الذين كانوا من زملاء حلقة الدرس .

قال لي الشيخ طارق إن الله لا يحب شريكا له في قلب العبد المؤمن ، ولذلك قال (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه وأولئك هم المفلحون) . والرسول قال في حجة الوداع " إن كل أمر من أمور

الجاهلية موضوع تحت قدمي هذه " . والصحابي مصعب بن عمير ، حين هـاجر من مكة إلى المدينة ، جاء إليه من يقول له إن أمك لا تأكل ولا تشرب حتى تعود إليها ، فردهم ليبلغوها أن مصعبا يقول " يا أمي لو أن لك سبعين نفسا ، خرجـت نفسا وراء نفس ، ما تركت هذا الأمر " .

وطالبني الشيخ طارق أن أتبرأ من كل من لا يؤمن بالله ورسوله حـق الإيمـان ، وأن أكون عزيزا عليهم لأن ذلك من صفات المؤمنين الذين يحبهم الله ويحبون الله ، كما قال : " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين " .

لم يكن قد مضى وقت طويل على بدئنا اللعب حين ركل أحدهم الكـرة فأصـابت رجل مارا في الشارع ، أمسك الرجل الكرة ورفض إعطاءنا إياها ، ثم نظر إلـى قاذفها وسب دينه . وفي اليوم التالي استدعاني أحـد الإخـوة وطلـب منـي أن أصطحب ثلاثة من الإخوة وأدلهم إلى بيت الرجل الذي سب دين زميلنا ، ففعلـت ذلك ووقفت بعيدا .

نادى أحدهم الرجل وطلب منه أن ينزل إليه ففعل ، وبينما هما يتحادثان هتف الأخ " الله أكبر " فانقض الآخران على الرجل ومعه اثنان من أقاربه . بعـد لحظـات انقلب الشارع رأسا على عقب ، وأصبت برعب حقيقي ، فجريت بعيدا بعيدا حتى وصلت إلى بيتي واختبأت وأنا أظن أن الشرطة ستأتي لتبحث عني ، فلـم أنـزل لصلاة المغرب والعشاء ، وربما ليومين اثنين بعد الحادثة .

جلست وحدي أفكر ، فأحسست بالنفور والاشمئزاز من منظر الشجار المـزري . فأنا أنفر من العنف ولم أمارسه في حياتي كلها ، لم أستسغ قط الاعتداء على رجل لأنه مسيحي سب دين المسلمين . كنت متأكدا أن الرجل لم يفكر في دين صـديقي قبل أن يسبه . كما أني صاحبت تلاميذ مسيحيين حين كنت في مدرسة الراهبـات الفرنسيسكان ، وذهبت إلى الكنيسة بلا رهبة لأشاهد أفلاما مثل " السيد المسيح" أو " شمشون ودليله" أو " القيامة " وحفظت الترانيم مع زملائـي . وكانـت "مسـير" (للأخت) أو جني تدخل علينا في حصة الدين الإسلامي حيث يغيب مدرس الـدين

الإسلامي لتسمع لنا القرآن . وقد سمّعت لي مرة سورة الحديد فلم تتهاون في كلمة أو كسرة أو فتحة .

تذكرت حين كنت في الصف الخامس الابتدائي كيف كان أصدقائي المسيحيون يتجنبونني وأحيانا يتعمدون إهانتي . وحين سألت أحدهم عن السبب قال لي : بسبب أحداث أسيوط التي قامت بها الجماعات الإسلامية . وما ذنبي أنا ؟ سألته ببراءة طفل لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره بعد ، فأجابني : كلكم مسلمون.

نعم ، كلنا مسلمون ، على ما أكد لي الشيخ طارق معتبرا أن صديقي حين قال لي هذا ، فإنما كان يردد ما يسمعه من أهله وفي كنيسته ، وأضاف أن ملة الكفر واحدة . فالغرب المسيحي يساند إسرائيل اليهودية لأنه يخاف أن يعود المسلمون إلى دينهم فتعود لهم عزتهم وقوتهم . ثم أخبرني أن المسيحي الذي أدبه الإخوة لأن سب دين المسلمين قد جاء معتذرا وطالبا الصلح وعرض أن يعتذر شخصيا للفتى الصغير الذي كان يلعب الكرة . وختم الشيخ طارق كلامه قائلا : انظر كيف يعز الله المؤمنين ويذل الكافرين .

من الضعف إلى القوة :

نملك في أسيوط بنايتين متقابلتين ، وكنت أسكن مع أسرتي في شقة في الطبقة الثانية من إحداهما ، وفي البناية الأخرى يسكن الطبقة الأولى ثلاث أسر ، إحداها مسلمة وفيها ثلاث فتيات ، والأسرتان الأخريان مسيحيتان وفيهما عدد من الفتيان والفتيات ، أحدهم صديقي الذي عاد باكيا حين رفض زملاء الحلقة مشاركته إياهم لعب الكرة . وأعمار الجميع تتراوح ما بين الثانية عشرة الثامنة عشرة.

كنت واقفا على شرفة شقتنا حين رأيت جميع هؤلاء الفتيات والفتيان يلعبون معا في مدخل البناية . واللعبة التي يتقاذف فيها اثنان الكرة بينما يتجنب الباقون أن تصيبهم ، كانت تقتضي أن ترفع الفتيات ملابسهن إلى ما فوق الركبة لكي يستطعن القفز فوق الكرة .

وحين رأيت أدركت أن واجبي كمسلم ملتزم بدينه يقتضي أن أغير هذا المنكـــر . أحضرت بندقية الصيد الخاصة بي وصوبتها نحو مدخل البناية ، ولما نفذت الكرة إلى هناك أطلقت نحوها طلقة جعلت الجميع يتسمرون في أماكنهم مشـــدوهين دون أن يجرؤ أحدهم على التقدم لأخذ الكرة ، حتى جـــاءت أم الفتيـــات المســـلمات ، فنظرت في عيني وتقدمت ببطء صوب الكرة ، فأخفضت بندقيتي في إشارة إلـــى أني سأتركها تأخذ الكرة احتراما لها ، مقررا ألا أسمح باللعب في المستقبل .

ثم حدثت مشاجرة بين فتاة مسيحية وجارتها المسلمة ، فأشارت الأولى إلى غبـــاء المسلمين الذين قتلوا بعضهم في مكة (إشارة إلى أحداث الحـــرم عـــام ١٩٨٦م ، التي بدأت بمظاهرات للحجاج الإيرانيين) . فجئت بأحد الإخوة وأشرت له إلـــى بيت الفتاة على سبيل التهديد لأبيها الذي كنت أعلم أنه يراني . وبالفعل أتى أبوهـــا معتذرا بعد نصف ساعة . وبدأ أن تنصيبي ممثلا لنفوذ " الجماعة الإسلامية " في شارعنا قد صار أمرا واقعا .

خطوات على الطريق :

في أكتوبر / تشرين أول عام ١٩٨٦م اقتحمت قـــوات الأمـــن مســـجد الجمعيـــة الشرعية ــ وهو مسجد الجماعة الرئيسي في أســـيوط ــ فقتلـــت أحـــد أعضـــاء الجماعة ، وقدمت لي ولكثيرين دليلا على أن الحكومة لا تحترم الإسلام . تأثرت كثيرا بمنظر أحد الإخوة وهو يحمل عصا ويرفعها عاليا ويصرخ في الفارين مـــن رصاص قوات الأمن : " اثبتوا إنه دينكم ، دافعوا عن إسلامكم " . وحـــين عـــدت إلى المنزل تذكرت الأفلام التي تحكي عن المسلمين الأوائل وهم يواجهـــون ظلـــم الكفار ، ونمت باكيا.

في الأسابيع التالية ، حاولت قوات الأمن منع الجماعة من الصـــلاة فـــي مســـجد الجمعية الشرعية نهائيا ، فلجأت الجماعة إلى خطة ذكية لكسر الحصـــار ، بـــأن دعت أعضاءها إلى تجنب الصلاة في أي مسجد ، وقسمتهم مجموعـــات تـــؤدي

الصلاة في مواضع مختلفة من الشارع في الوقت نفسه . فتراجعت قوات الأمن وعادت الجماعة إلى مسجدها منتصرة ، وروحها المعنوية مرتفعة .

لم أكن في السنة الدراسية تلك عضوا فاعلا في النشاط الإسلامي في المدرسة ، ولا كنت مواظبا على الصلاة في المسجد ، وعلاقتي بالجماعة لم تكن تتعدى الدخول في جدال مع المدرسين والطلبة حول بعض مواضيع الإسلام السياسي ، بينما الجميع ينتقدني لأن أخلاقي لا تعطي صورة جيدة عن المسلم الملتزم.

وحتى صيف ١٩٨٧م لم أكن أعتبر نفسي عضوا في " الجماعة الإسلامية" ، وكنت أرى أنهم أصدقاء أحبهم وأتعاطف معهم . وهم يبدون اهتماما شديدا بي ويسألون عني إذا غبت عنهم ، بينما يشعرني بالراحة أدبهم الجم وأحس بالحماية حين أكون بينهم . كنت مؤمنا بأن هؤلاء هم القادرون بإخلاصهم وشجاعتهم على الانتصار لهذه الأمة بأسرها وإشاعة العدل والنقاء والمساواة بين الناس .

ذات يوم كنت خارجا من صلاة المغرب في مسجد الجمعية الشرعية حين جاءني أخ لا أعرفه واستأذنني أن أظل بجانب كتبه التي كان يبيعها على سور المسجد ، كي يتمكن من أداء الصلاة . جلست بجانب صندوق الكتب وأطلعت على أحدها فإذا به كتاب " حتمية المواجهة " وهو ، كما يدل اسمه ، يتحدث عن المواجهة العسكرية مع النظام المصري العلماني الكافر كسبيل وحيد لبسط سلطان دين الله . ويسوق مدللا على ذلك ــ إلى جانب الحجج الشرعية ــ البراهين الحركية التي تؤكد أن الأنظمة المستبدة مثل النظام المصري لم تفلح معها على مدى التاريخ أي دعوة سياسية ، ويضرب مثلا على ذلك حركة " الإخوان المسلمين " في مصر والحركة الإسلامية في تركيا .

وإذا كنت أجهل مضمون الكتاب حين رضيت أن أجلس بجانب الصندوق ، فإن توافد السائلين عن محتواه قبل شرائه أرغمني على تصفحه لكي أشرح لهم مضمونه . ولم تمض أكثر من عشر دقائق حتى صرت أحس أن الكتاب ينتمي إليّ بصورة ما ، وزالت من قلبي رهبة الكلام فيما يخص الحكم والحاكمية والمواجهة المسلحة .

أفلام وأغنيات :

وفي صيف ١٩٨٧م بدأت الجماعة تعرض أفلاما عن الجهاد في أفغانستان ، مصحوبة بأناشيد ثورية وصور لأطفال الحرب المشوهين ، وبتعليقات حماسية تحقر الذين يتخلون عن إخوانهم المسلمين ويتركونهم فريسة للكفار ، وتتهكم من الحضارة التي يطنطن بها الشرق والغرب الكافران . وهذا كله في إطار سرد معجزات يحققها الله تعالى على أيدي المجاهدين .

كانت الأحداث في هذه الأفلام تتلاحق حتى تنتهي إلى حجر في يد طفل مجاهد يرميه في الهواء ، فتتابعه الكاميرا بالتصوير البطئ حتى يسقط على دبابة روسية يفجرها وينطلق صوت المغني المؤثر :

" النار بذلك شبت فتقدم يا حاميها

ورياح الجنة هبت فهنيئا يا باغيها

من يطفئ تلك النار من يسهر ليل نهار

من يحمي شرف الدار والغاصب يعبث فيها

أمتنا لا شرقية في الأرض ولا غربية

أمتنا إسلامية فهلم بنا نحميها " .

كنت لا أستطيع أن أقاوم دموعي وأنا أشاهد تلك الأفلام ، فانتهي من مشاهدتها ممتلئا حماسة ونقمة على الذين يتركون المسلمين يواجهون هذا المصير من دون أن تدفعهم الغيرة على دينهم إلى نصرتهم .

وبدأت دروس مسجد الرحمة مع الشيخ طارق تأخذ منحى جديدا ، فصرنا ندرس فقه الجهاد وفقه الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، على أنهما بابا فقه مثل الصلاة والصيام والزكاة . ثم صرنا ندرس أيضا أحوال الحركات الإسلامية الأخرى ، وخصوصا حركة " الإخوان المسلمين " وحركات " التفكير والهجرة " و" التوقف والتبين " و" أنصار السنة " .

كانت هذه الدروس تركز أولا على الأخطاء الشرعية التي وقعت فيها تلك الجماعات ، قبل أن تتوجه إلى دراسة الأخطاء الحركية بوصفها نتيجة لمخالفتها

الشرع . فـ " الإخوان المسلمون " ـ على سبيل المثال ـ ارتكبوا مخالفة شرعية حين وافقوا على دخول مجلس الشعب الذي يمثل أشد صور التشريع ابتعادا من شرع الله . وقد جرت هذه المخالفة الشرعية على " الإخوان " خطأ حركيا لمساهمتهم في تجميل صورة النظام المصري العلماني ، بإظهاره بمظهر المتقبل لكل الأفكار والتيارات . وهذا ما يمنحه التبرير الكافي لضرب التيارات الإسلامية الأخرى التي ترفض الدخول في إطاره الديمقراطي المزيف . فإذا قضى على تلك التيارات التفت إلى " الإخوان المسلمين " فأصابهم بمثل ما أصاب إخوانهم من قبل. وكانت الجماعة تعضد وجهة نظرها هذه بتدريسنا نماذج من تاريخ الحركات الإسلامية في العصر الحديث، ولا سيما حزب الرفاه في تركيا .

لكن هذه الأفكار الثقيلة عن ضرورة الفصل والقطع التام بين منهج التغيير الذي نتبناه كإسلاميين ومنهج التغيير الذي تحاول الأنظمة العلمانية فرضه علينا ، لم تكن تقدم إلينا على هذه الصورة الجافة ، بل إن للقلوب سبلا أكثر طراوة في تلقيها في حمى الطقوس والشعائر التي كنا نعيشها في الجماعة ، ومن أغنيات تلك الشعائر والطقوس أغنية كان ينشدها أحد الإخوة في اللهجة الصعيدية ، تحكي عن طلاب أتوا المدينة لتلقي العلم ، لكنهم فوجئوا بالمعاصي تنتشر في كل مكان :

" قلنا يا شرطة ترضوا الظلم يبقى دوانا
والكفر ينشر خيوطه ويملى شوارع المدينة
قالوا إحنا بنفعل اللي يملى علينا
قلنا والله ما ينفع لا وعظ ولا رشاد
دي قلوب خبيثة مالهاش غير الجهاد
اضرب يا زهدي اضرب طهر بينا البلاد
سقطت حصونهم تهاوت كأن عسكرهم جراد
وده درس لكل ظالم حتى يوم المعاد " .

في البدء تؤدى هذه الكلمات غناء ، وسرعان ما تتحول طاقة عاطفية في النفس والجوارح ، وتمسي حقيقة لا راد لها : " لا وعظ ولا رشاد .. دي قلوب خبيثة

مالهاش غير الجهاد " وهكذا يجعلنا الذوبان في كلمات الأغاني والشعائر والطقوس مستعدين لتلقي دروسنا الأولى عن " تكفير الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله " ودراسة " ميثاق العمل الإسلامي " .

الله لي وحدي :

كانت دروسي الأولى عن تكفير الحاكم مرتكزة على نموذج معرفي استغرق زرعه في داخلي سنة كاملة حتى صرت غير قابل للجدال فيه : أنت مسلم ، والإسلام معناه الاستسلام لحكم الله والخضوع له ، والإيمان بآيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية قولا وعملا . والله يقول في كتابه (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . ثم يرتفع صوت المتحدث : " هل بعد هذا الوضوح وضوح ؟ هل بعد هذا البيان بيان ؟ الله تعالى يقول من فوق سبع سماوات إن من لا يحكم بشريعته التي أنزلها كافر ، ثم يأتي بشري حقير يأكل ويشرب ويمسح خراءه بيديه ليقول لا .. ليس بكافر !".

بعد تلك الدفقة العاطفية يشرع المتحدث في سرد الأدلة الشرعية وفق الترتيب الآتي : آيات القرآن ، الأحاديث النبوية ، وأقوال العلماء . والحجة الأقوى بين فتاوي العلماء هي إجماعهم على فتوى بعينها . وكانت تلك هي الحال مع فتوى تكفير الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله . يقول المتحدث بمنتهى الثقة وأحيانا باللهجة العامية : إننا لم نأت بهذا الكلام من " عندياتنا" (لا أدري ما مدى صحتها لغويا) ، ونحن لا نفتي كما يقولون عنا في أجهزة إعلامهم ، فهذا ابن كثير أحد أعمدة التفسير يفتي في تفسيره المعتمد والمعروف بكفر الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله .

وفي بداية الولاية الثانية للرئيس حسني مبارك عام ١٩٨٧م برزت فتاوي تكفير الحاكم إلى السطح كما لم تكن من قبل ، فأضيف إلى إعجابي بقدرة الإخوة على سرد الأدلة الشرعية إعجابي بشجاعتهم وهم يقفون فوق المنبر مصرحين بقوة وحسن بيان بما يخشى الجميع أن يصرحوا به .

وإبان فترة الانتخابات التشريعية أصدرت الجماعة كتيبا عنوانه " إله مـــع الله ؟ " كما اعتمدت كتيبا أصدرته جماعة " التوقف والتبين" واسمه " القول السديد في بيان أن مجلس الشعب مناف للتوحيد " . وقد اتفقت المطبوعتان على أن مجلس الشعب كجهة للتشريع من دون الله هو تجسيد لفكرة الشرك بالله التي ما جاءت الأديان إلا للقضاء عليها من على وجه الأرض . ويفرق الكتيبان بين نوعين من التوحيـــد : الأول توحيد الربوبية وهو الاعتراف بأن الله هو خالق هذا الكون ورازقه ومـــدبر شؤونه ، وهذا نوع من التوحيد غير كاف لكي يكون المرء مسلما ، لأن كفار مكة كانوا يقرون هذا النوع من التوحيد .

والثاني هو توحيد الألوهية ويعني الإقرار بأن الله هو المشرع الوحيد في الكـــون لأنه خالقه وأدرى بما يصلح نفوس عبيده .

ويتفق الكتيبان على أن مجتمعاتنا الحالية تشبه مجتمع مكة وقت الرسالة المحمدية ، حيث آمن الناس بأن الله هو الخالق والرازق ، أي وحدوه توحيد ربوبية ، لكنهم نزعوا عنه صفة الحاكمية ومنحوها للبشر ، وهذا شرك ألوهية . أما الفرق الوحيد بين موقف الجماعتين فيتمثل في مسألة " العذر بالجهل " أي هـــل عـــوام النـــاس معذورون عند الله بجهلهم ، وهل نعتبرهم كفارا أم لا ؟

وترى جماعة " التوقف والتبين " أن الناس غير معذورين بجهلهم وأنهم مشركون، أو على الأقل يجب أن نتوقف عن الإقرار بإسلامهم حتى نمتحنهم ونتبين إيمانهم ، وتستدل الجماعة على ذلك بآيات قرآنية .

أما " الجماعة الإسلامية " فتقر بأن فعل الاحتكام إلى مجلس الشعب هو كفر فـــي حد ذاته . لكنها لا تكفر من يفعلون ذلك من العوام لأنها تعذرهم بجهلهـــم وعـــدم إدراكهم حقيقة دينهم ، لأن الأصل فيهم أنهم مسلمون ، ولا تعدم جماعتنـــا آيـــات قرآنية كثيرة تستدل بها على صحة حكمها هذا الذي حيرنـــي ودفعنـــي إلـــى أن أتساءل : إذا كانت الجماعة لا تكفر الناس فلم تستبيح قتلهم ؟ ولإجابتي عن سؤالي قررت الجماعة تدريسنا بحث " قتال الطائفة الممتنعة عن تنفيذ حكم من أحكام الله" ، وهو البحث الأهم لدى الجماعة ، لأنه يضع الإطار الشرعي لقراراتها الحركيـــة

، ويفرق بين منهجها في إقامة دولة إسلامية وبين منهج الجماعات الأخرى التي تسعى إلى الهدف ذاته .

ويفرق البحث بين القتل والقتال ، أو حسب تعبيره الحرفي " قد يجوز قتال الفرد ولا يجوز قتله " . فالقتل يقتصر فقط على أشخاص بعينهم استوفوا أسباب القتل كمحاربة دين الله وإظهار معاداته ، وزالت عنهم موانعه كالجهل والاضطرار . وهؤلاء فقط تشملهم قوائم الاغتيال . أما الآخرون مثل جنود الأمن المركزي فيقاتلون لأنهم يدافعون عن نظام يمتنع عن تنفيذ بعض حدود الله ، مع الإقرار بأنهم مسلمون . وهذا ما فعله أبو بكر الصديق حين قاتل مانعي الزكاة في صدر الإسلام مع إقراره بإسلامهم ، ومن دون أن يستحل نساءهم كما تستحل نساء الكفار.

ويشرح البحث أيضا منهج الجماعة الذي لخصته في جملة واحدة " أيما طائفة ذات منعة امتنعت عن تنفيذ حد من حدود الله ، وجب قتالها والخروج عليها ، وقتالها أولى من قتال الكفار " .

ولا ينسى شارح البحث أن يشير إلى أن جميع الحركات الثورية في الدول ذات الأنظمة المستبدة لم تنجح في الوصول إلى السلطة إلا عن طريق السلاح.

أعجبتني فكرة أن يكون القرآن منهجا حركيا يرسم لنا طريق إقامة دولة الإسلام ، ويزيل عن صدورنا هؤلاء الجاثمين عليها والمتحكمين في مصائرنا ومصائر بلادنا ، وأن يحدد لنا متى نقاتل ومتى نصالح ، ويعدنا بالنصر وعدا إلهيا لا شك فيه . وكانت أول هدية تسلمتها من الجماعة مصلقا مرسومة عليه الكرة الأرضية وحوله آية تقول (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) . كان هذا يمنحني طمأنينة وثقة وإيمانا واعتزازا بما أعلم دون غيري . كأنما الله لي وحدي دون غيري .

العلماء ورثة الأنبياء :

صرت مغرما بالتخلي عن معتقداتي السابقة وبإدراك الأشياء في تفاصيلها ولـــيس كما يتناقلها العوام . ففكرة أن تعرف شيئا لا يعرفه الآخرون ، ثم تجلـــس مـــنهم مجلس المعلم من تلاميذه ، لهي فكرة مغرية بلا شك . وحين سألت الشيخ طـــارق لأول مرة أذهلني حضور جوابه وقدرته على حفظ الأدلة الشرعية ونســـبتها إلـــى أصحابها . كنت أحس أنني قزم أمام هذا التدفق للأقوال والأفكار منسابا من فمه ، وتمنيت أن يأتي يوم أكون فيه مثله .

كنت أحس أنني لا أتمتع بقوة جسدية تجعل مني بطلا كهؤلاء الذين يحكي الإخـــوة عنهم ، لكنني بلا شك قادر على الحفظ والاستيعاب . وأكثر من ذلـــك اســـتهوتني عملية استنباط الخطوات الحركية واستلهامها من الأصل القرآنـــي ، مـــن الســـنة النبوية ، بكلام آخر إيجاد العلاقة بين النظرية والتطبيق . وانبهرت بـــأول كتـــاب قرأته لسيد قطب " معالم في الطريق " . فالإسلام ها هنا يخرج من المسجد ويخلع العباءة ويرتدي بذلة أنيقة أو يعلو منبرا سياسيا ويجلس إلى مائدة مســـتديرة ، ولا يتوارى منحنيا خلف أبواب السلطان .

وأصابني نهم إلى قراءة الكتب الفكرية ولا سيما مجموعة سيد قطب ومحمد قطب ، التي حفظت أجزاء منها عن ظهر قلب . ورحت حين أكتـــب أحيانـــا أحـــاكي أسلوب سيد قطب في الكتابة . وكم فرحت حين أخذ الأخوة يقولون عني سيد قطب الصغير . ثم صارت مجادلة المخالفين فكريا من جماعة " الإخـــوان المســـلمين " ومن الأشخاص العاديين ، بالأدلة الشرعية والحجة المنطقية هي هوايتي المفضـــلة ، وبدأت أشعر أن لي كيانا في هذه الحياة أنتمي إليه ، وأن لي نموذجـــا معرفيـــا متكاملا ألجأ إليه في حكمي على الأمور . فلا أحتار ولا أشعر أني كائن مهمل لا رأي له ، خصوصا أن هذا النموذج رباني المصدر ، لا يستطيع المصـــريون أن يعارضوه ، بل يشعرون إزاءه بالتسليم التام بمجرد أن تذكرهم بربانية مصدره.

صار " البسطاء " حين يستمعون إليّ يمدحونني بعبارات ولا أحب إلى نفسي "روح يا بني ربنا ينصرك " أو " دة اللي زيه بيدخنوا وبيقعدوا على القهاوي ، وهو راجل عارف ربنا " .

أمير " أخوة ثانوي " :

لتميزي في حفظ الأدلة الشرعية صنفت عضوا في سلك النشاط الدعوي للجماعة. والناشطون في العمل الدعوي تجنبهم الجماعة شؤون " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " التي قد تؤدي إلى القبض عليهم ، وتأخير مسيرتهم أو ابتعادهم عن الجماعة في حال تعرضهم إلى السجن في عمر مبكر . وعضويتي في السلك الدعوي استلزمت أن أرتقي في الدروس التي أتلقاها وفي نوعيتها . فصرت أحفظ القرآن بكثافة والأحاديث النبوية بانتظام ، وأحضر دروس مدرسة الدعوة ، وهي مدرسة أنشأتها الجماعة خصيصا لمجموعة مختارة من أعضائها لتدريبهم على فنون التحدث وعلى الندوات وحلقات المناقشة . لكن قد يكون أهم ما يدرس في مدرسة الدعوة هو ما يسميه الإخوة " شبهات حول العمل الإسلامي " .

تشمل تلك الشبهات الاتهامات التي يوجهها الإعلام أو الجماعات الإسلامية الأخرى أو المستشرقون إلى " الجماعة الإسلامية " خصوصا ، وإلى الفكر الإسلامي ، ولا سيما الجهادي ، عامة . ومن أشهر تلك الشبهات التي يثيرها الجميع ، بمن فيهم جماعة " الإخوان المسلمين " ، هي تهمة اعتداء " الجماعة الإسلامية " عام ١٩٨١م على مجموعة من الصاغة الأقباط وقتلهم وسرقة محالهم التجارية للإنفاق على شراء الأسلحة .

وكان الرد الذي يدرسنا الإخوة إياه مستلهما من حادثة اعتراض المسلمين الأوائل لقافلة الكفار بالقرب من المدينة في طريقها إلى مكة . وهي الحادثة التي استدل منها كاتب السيرة محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه " فقه السيرة " على جواز الاستيلاء على أموال الكفار. ولإثبات أن المسيحيين المعتدى عليهم اليوم هم من الكفار ، كنا ندرس الفرق بين مسيحيي أهل الذمة الذين بينهم وبين المسلمين عهد

، وبين المسيحيين المقيمين حاليا في مصر ، والذين يجاهرون برفضهم تطبيق الشريعة الإسلامية في بلاد الكنانة، مما لا يجوز اعتبارهم أهل ذمة . هذا إضافة إلى أنهم رفعوا السلاح في وجه المسلمين أثناء أحداث الزاوية الحمراء في القاهرة عام ١٩٨١م . وقد يرجع المتحدث إلى التاريخ ليثبت كم تعاون مسيحيو مصر مع الاحتلال البريطاني ، وكيف كانوا سببا في استمرار احتلال إنجلترا بلدنا المسلم بدعوى حماية الأقليات .

كانت دروس مدرسة الدعوة شديدة التركيز . وما هي إلا أسابيع قليلة حتى بدا الفرق واضحا بيني وبين زملاء الدرس ، ناهيك بما شعرت به من تفوق على أقراني في الشارع . فقد صرت قادرا على الإجابة عن أسئلة السائلين قدرة الشيخ طارق نفسه على الإجابة عن أسئلتي قبل أشهر قليلة ، بل صرت قادرا على مراجعته شخصيا وتصحيح معلوماته أو الإضافة عليها .

واكتشفت أن صناعة الكلام والأجوبة ليست صعبة كما كنت أتخيل ، بل هي عمل غير شخصي وانتقائي محض . فالأسئلة المتداولة معروفة ومحدودة وتستطيع من ثم أن تحفظ أجوبتها عن ظهر قلب ، فتسحر بها عقل السائل . كأن الثقافة الدينية أشبه ما تكون بالكلمات المتقاطعة ، توهمك أنك تعرف كل شيء في حين أنك تخلق لنفسك عالما معرفيا ضئيلا تفرح باستعادته كل يوم .

ومع تقدمي في الدروس رحت أتوهم أنني لست فردا عاديا ولا ينبغي أن أكون ، بل لا بد أن أرسم لنفسي طريق سيد قطب ومن مثله ، ليظل اسمي حيا بعد موتي. ثم لم يعد في حياتي شيء سوى الصلاة والدرس والعودة إلى البيت لقراءة كتب السيرة والتاريخ والفكر الإسلامي ، إضافة إلى حفظ القرآن الكريم والحديث . لم يكن التعبد غايتي من قراءة القرآن ، بل كنت أقول لنفسي إن الأفضل أن أنفق هذا الوقت في حفظ القرآن وقراءة الكتب . وقد حفظت القرآن كله خلال ثلاث إجازات صيفية متعاقبة، وقرأت كل كتب السيرة التي يسمح بها الإخوة إضافة إلى مختاراتهم من الكتب الفكرية . وعند بدئي بقراءة كل كتاب كنت أسأل الإخوة عن المخالفات الشرعية الموجودة فيه كي أكون متهيئا لها . فحين بدأت بقراءة كتاب

محمد سعيد رمضان البوطي " فقه السيرة " نبهوني إلى لدى كاتبه خطأ عقائديا لأنه يجيز التبرك بالصالحين كما تفعل الصوفية . إلا أنني لم أنتبه أبدا إلى أن الإخوة سلبوا حياة بعض الناس وأموالهم ، استنادا إلى فتوى وردت في هذا الكتاب. وها أنذا أتعجب اليوم كيف أضيفت قداسة غير معلنة على كلمات ورفضت كلمات أخرى في الكتاب نفسه وللمؤلف نفسه . كأنما المقبول والمرفوض كلاهما لا يخصانني في شيء ، ولم أمحصهما أو أجتهد فيهما أو أبذل أي عناء في قبولهما أو رفضهما .

وفي نهاية صيف ١٩٨٧م أجرى الإخوة امتحانا في مختلف المهارات التي تدربنا عليها والدروس التي تلقيناها ، فنلت أفضل درجة ، ولما بدأ الإخوة يفكرون في توسيع نشاطهم ليشمل المدارس الثانوية إلى جانب الجامعة ، طلبوا من زملاء الحلقة بمن فيهم أنا أن نكتب تصوراتنا عن السبيل الأمثل لعمل إسلامي فعال في المدارس الثانوية . وهذا ما طلبوه أيضا من جميع الإخوة الذين يحضرون حلقات الدرس في مختلف مساجد الجامعة في مدينة أسيوط وخارجها . وبالفعل قدم كل منا تصوراته واجتمع أحد قادة الجماعة بجميع " الملتزمين " الذين يدرسون في المدارس الثانوية وقرأ علينا الاقتراحات التي قدمناها وناقشها بحسب أهمية كل منها . وفي نهاية الاجتماع شرح المتحدث التصور الذي خلصت إليه الجماعة لكيفية العمل في المدارس الثانوية ، وشرح تصورها للهيكلية التنظيمية ، ولمواعيد اجتماعنا ولشؤون المراجعة والمحاسبة ، وأخيرا قدم لنا القائد المتحدث الأخ الذي يجب أن نرجع إليه إذا احتجنا إلى مساعدة من الإخوة خارج المدارس الثانوية . وكان ختام الاجتماع بإعلان اسم الأخ الذي سيكون أميرا على " إخوة ثانوية" في محافظة أسيوط . وكنت أنا هذا الأمير المختار .

لذة الألم :

أعددت ورقة تحوي تصوري للهيكل التنظيمي لـ " إخوة ثانوي " أي أسماء الملتزمين في كل مدرسة واسم الأخ المسؤول فيها . سلمت الورقة لـ " صاحب

الجنزير " ، وبعد يومين اثنين طلبني أحد قادة الجماعة للتحقيق معي لأن الورقة وجدت ملقاة في المسجد . ورغم قولي إني أعطيت الورقة لفلان ، فقد وبخني القيادي حتى أبكاني متهما إياي بالإهمال وعدم القدرة ولا الصلاحية لتحمل المسؤولية . وذكر لي أمثلة توضح كيف أن ورقة كهذه ، نتيجة الإهمال ، قد تسبب في إجهاض تنظيمات ضيع الإخوة أعواما في الإعداد لها ، إضافة إلى الخسارة البشرية ، وأوصاني بألا أكتب أبدا أسماء أو معلومات حقيقية على ورق ، ثم عاقبني بدفع عشرين جنيها في انتظار أن يجري الإخوة تحقيقا ثنائيا معي ومع صاحب الجنزير . ورغم إنكار صاحب الجنزير في البداية أنه تسلم مني الورقة فقد حاججته أمام الإخوة حتى اقتنعوا بحجتي ، فعاقبوه بدفع مبلغ من المال ، إضافة إلى ضربه سبعين مرة على باطن قدمه ، كي لا ينسى تلك الغلطة أبدا.

بدأنا العمل الإسلامي في المدرسة بنشاط مشهود من الجميع . وزعنا على الطلاب في بداية العام كتيبات تعرف بالجماعة ، مكتوبة في لغة مبسطة وعنوانها " من نحن وماذا نريد ؟ " . ثم نظمنا حلقات دينية تعقد اجتماعاتها في المدرسة أثناء الفسحة الطويلة ، وتتنوع موضوعاتها ما بين السيرة والحديث والفقه والتاريخ الإسلامي ، وتناسب منهاج طلاب المدارس الثانوية . وفي مسجد المدرسة كنا نحن المنضوين في صفوف الجماعة نتعمد إثارة حفظنا الإجابة عليها ، ونرغب في أن نعلمها للطلاب ، ومن أكثر هذه الأسئلة ترددا : حكم الغناء في الإسلام ، وحكم النظر إلى المرأة الأجنبية ، وهل من لا يحكم بما أنزل الله كافر ؟ وأخذ الطلاب يستشيروننا في أمورهم الخاصة مثل كيفية الغسل من الجنابة ، أو حكم ممارسة العادة السرية ، أو التوبة إلى الله من الذنوب التي تثقل الضمائر في تلك المرحلة من العمر .

واتسعت حلقتنا المعقودة في فناء المدرسة ، وزاد إقبال الطلاب عليها على نحو لم نتوقعه ، فسار أعضاء جماعة " الإخوان المسلمين " على طريقتنا في إقامة حلقة درس لهم بين الطلاب ، لم تكن أهمية حلقات الدرس تلك تقتصر على تدريس بعض المواد الشرعية ، بل تتجاوزها إلى اختيار الأشخاص الذين نجد لديهم ميلا

إلينا ، وهؤلاء الأشخاص هم الذين نوجه لهم اهتماما متزايدا وعناية خاصة ، فنزورهم في بيوتهم ونسأل عنهم إذا غابوا ونهاديهم ونقيم معهم صداقات شخصية.
وبعدما قويت شكوتنا في المدرسة ، وصرنا نحس أننا المرجعية الدينية الحقيقية فيها ، رحنا نقيم في فنائها صلاة الجماعة . ثم تطورت سلطتنا الدينية كثيرا حين صار الطلاب يلجأون إلينا للشكوى من استهزاء أحد ما بالإسلام أو مجاهرته بمعصية . وكنا لا نتردد في " تغيير المنكر " ، كما حدث مع طالب مسيحي طلب منه الفصل الذي يدرس فيه رسم شيء يعبر عن المولد النبوي فرسم متجرا لبيع الحلوى وكتب على اليافطة " حلويات المدوّد " ، فانتظره بعض الإخوة وهو خارج من المدرسة وضربوه مذكرين إياه بألا يحاول الاستهزاء بالمسلمين مرة أخرى .
وكان استعراضنا الأكبر لقوتنا في المدرسة حين شاع أن أحد الطلاب شاذ جنسيا وأنه يروج صورا " منكرة " بين الطلاب ، فجاء إليه إخوة من خارج المدرسة ، وفي مشهد كأفلام السينما ضربوه ضربا مبرحا وهم يهتفون " الله أكبر ، الله أكبر" وقد تكررت مثل هذه الحوادث مع اختلاف الأسباب ، ولكنها لم تقتصر على الطلاب بل تجاوزتهم لتنال مدرسا سب الله ، وتحولنا بالفعل إلى القوة العظمى في المدرسة والأكثر هيبة واحتراما أو تخويفا للجميع .
وبادرت إدارة المدرسة إلى عقد ندوات دينية في إطار خطة معلنة وضعتها الحكومة لمحاربة " التطرف " . وكان المتحدثون في تلك الندوات تشكيلا من أحد أفراد الهيئة التعليمية ، وعضو في الحزب الوطني الحاكم ، إضافة إلى شيخ أزهري ، فيجمعون الطلاب في إحدى قاعات المدرسة ويتحدثون حديثا واحدا لا يتغير ، عن الجهود التي تبذلها الحكومة ــ وعلى رأسها السيد الرئيس ــ من أجل تحسين مستوى الخدمات والحريات وفي سبيل الحفاظ على الإسلام ومواءمة القوانين المصرية للشريعة الإسلامية في نسبة لا تقل عن تسع وتسعين في المئة . كانت الجلسات مملة والحجة ضعيفة وكنا كالعادة مجهزين بأسئلتنا وبكتب تنقل إجماع العلماء على الفتوى التي نأخذ بها .

كنت أحس بالإشفاق على المتحدثين في هذه الندوات ، وخصوصا المشايخ منهم ، لأنهم يرددون كلاما ضحلا يستطيع فتى مثلنا في السادسة عشرة أن يفنده ويظهـــر قائله جاهلا أو منافقا . فالشيخ من هؤلاء لا يستطيع أن يلجأ إلى غير ما في كتب السلف أو القرآن والحديث ، وهي جميعا تكذبه تماما في ما يتعلق بالـــدعوة إلـــى مناصرة النظام الحاكم في مصر . وما من مسألة أثارها فـــي هـــذا المجـــال إلا حاججناه فيها وقدمنا الأدلة على كذبه ، استنادا إلى المرجعية التي يرجع إليهـــا ، أي الكتاب والسنة وأقوال العلماء من السلف الصالح . وفي الندوة الأخيرة فـــاض به الكيل بعد أن قرأنا ما يقوله العلماء " الثقاة" في الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله ، أو الذي يعطل ولو حدا واحدا من حدود الله ، وفي وجوب الأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر في مختلف وجوه حياتنا اليومية . لكن رجلا مثلـــه لـــم يكـــن يستطيع أن يقول أن أحكام الإسلام كانت معطيات ثقافية في مرحلة مـــا ، أو إننـــا نستطيع أن نظر إليها نظرة تاريخية أو نقدية . فالدين هو سلعة الشـــيخ المتحـــدث ومصدر رزقه ، والرزق من الوظيفة ، والوظيفة عند أمن الدولة ، ولم يكن فـــي وسع شيخنا المسكين إلا أن يثور علينا ، بينما الطلاب يضحكون عليه ، فنخـــرج من القاعة ويخرج الجميع معنا ، إلى أن ألغي عقد مثل هذه الندوات في المدرسة. وربما كانت تلك الندوات مقدمة لاتخاذ قرار أمني كبير.

فبعد أيام عدة فوجئنا بطوق عسكري مضروب حول المدرسة التي بدت أشبه بقلعة محاصرة أحاطت بها ثلاث عربات أمن مركزي كبيرة وثلاث سيارات مصفحة . ولدى خروج الطلاب اصطف الجنود على جـــانبي البوابـــة ممســـكين دروعهـــم وشاهرين عصيهم . لكن هدف هذا كله كان إرهاب الطلاب والإيحاء بـــأن أمـــرا جللا يحدث في المدرسة . ومهما كان من أمر أفعالنا ونشاطاتنا نحن طلبة الجماعة ، فإنها لم تكن تحتاج إلى مثل تلك القوة العسكرية للسيطرة عليها . إذ كان يمكـــن وضع حد لها بتدخل حازم من إدارة المدرسة نفسها ، من طريق عقوبـــات يـــنص عليهـــــــا القــــــــان□Á悦Ë□¿ □جم□ـــــــــــــــ

زها حتى لا أفقد احترام الآخرين . ولم أعد أستطيع المداومة على حضور اجتماع " إخوة ثانوي " لتخفيف حدة المشاحنات مع أسرتي ، لكنني حين كنت أذهب لحضور الاجتماع كان يسبق الترحيب بي تقديم وثناء كبيران .

كنت أرى أن كل ما يحدث لي من مشقة هو ابتلاء واختبار وامتحان من الله ، لأثبت أنني مؤمن صادق الإيمان ، لا منافق لا يملك سوى الكلام . لكن فرحتي بتقدير الإخوة لي في مقابل حزني بسبب معاناة أهلي ، لم تقلل من معاناتي إزاء تجنب أصدقائي لي ، استجابة لنصائح أهلهم بوصفي إنسانا خطرا ، ولا من إحساسي بالظلم الواقع علي وأنا أجبر في سن كهذه على أن أبدأ يومي بعد صلاة الفجر بالسفر في برد الشتاء مسافة أربعة وستين كيلو مترا إلى مدرستي ، والعودة منها مساء قاطعا المسافة نفسها ، من دون أن يكون هناك قانون ألجأ إليه أو جهة أشكو إليها . وهذا إضافة إلى تعنت مدير مدرستي الجديدة معي ، لينال رضى أمن الدولة ، وذات مرة وصلت إلى المدرسة متأخرا ربع ساعة ، فرفض المدير السماح لي بالدخول إلى الصف ، فعدت أدراجي إلى أسيوط . وحين خرجت من بوابة المدرسة باكيا كالطفل الصغير ، رحت أتخيلني أقرب ما أكون إلى الله ، وأن جناح ملاك سيهبط من السماء ليحتضنني وينقض على تلك المدرسة ليدمرها انتقاما لي . وهكذا اختبرت كم يكون استعذاب المعاناة أحيانا أمرا محببا إلى النفس البشرية ، وكيف يمنحها التلذذ بالألم إيمانا وثقة غريبين ، ويجعلها تشعر بكينونتها وأهميتها .

وفي تلك السنة المدرسية كدت أرسب في صفي ، لكنني تفوقت في صفوف " الجماعة الإسلامية " .

الأمير المخلوع:

في بداية العام الدراسي التالي قررت أن أحد من اختلاطي بالجماعة ، وأن أعيد علاقاتي بأصدقائي السابقين للتنسيق معهم في أمور الثانوية العامة والدروس الخصوصية ، كان حلم قديم يراودني بأن أصير طالبا في كلية الطب ، وأرتدي المعطف الأبيض ، وأضع السماعة الطبية على كتفي . ولكي أحقق حلمي هذا ،

كان لزاما علي أن أجعل الدراسة اهتمامي الأول . ويوما بعد يوم بدأ " إخوة ثانوي" يقولون إن الدنيا أخذتني ونسيت واجبات ديني ، أنا من لم يتوقف عن العمل الإسلامي ، إذ كنت لا أزال أميرا للجماعة في المدارس الثانوية ، وأؤدي الأمانة الملقاة على كتفي . كنت دائما أتذكر أني على ثغر من ثغور الإسلام ، فلا ينبغي أن يؤتى الإسلام من قبلي .

وفي بداية العام الدراسي كان أمن الدولة قد حول أوراقي إلى مدرسة ثالثة ، لكنها هذه المرة في مدينة أسيوط نفسها ، وكان قرب المدرسة امتيازا كبيرا لي ، لا أريد أن أفقده بعد أن جربت عناء السفر كل يوم إلى مدرستي السابقة . وكان العمل الإسلامي في المدارس الثانوية قد أصيب بانتكاسة كبيرة بعد قيام أجهزة الأمن بنقل الإخوة من مدارسهم العام الماضي . ولذلك قررت الجماعة أن تهدئ الأمور وتتجنب مرحليا أعمال " تغيير المنكر " داخل المدارس الثانوية . وقد اتخذت الجماعة قرارها هذا بناء على حقيقة أن العمل داخل المدرسة المغلقة يختلف عن العمل في الأماكن الأخرى المفتوحة ، مثل الجامعة أو أحياء المدينة . وصار منوطا بي أن أنفذ قرار الإخوة الذي وافق هوى في نفسي ، فبدأنا العام الدراسي بعمل إسلامي هادئ يعتمد أساسا على ما يسميه الأخوة " الدعوة الفردية " ، أي دعوة الأشخاص أفرادا دون إظهار أي صورة من صور العمل الجماعي المعلن ، كالحلقات الدينية أو إلقاء الخطب أو عقد الاجتماعات في المدرسة . والقاعدة الأساسية في " الدعوة الفردية " هي تعلم مهارة " تأليف القلوب " . وهذه تعني في الاصطلاح الإسلامي كيف تكسب ود الآخرين عن طريق التزاور وتبادل الهدايا ، حتى تجعلهم يحبون الدعوة التي تبشرهم بها من طريق حبهم لك واحترامهم إياك.

واستمرت الحال على هذا النحو حوالي ثلاثة أشهر ، فتسرب الملل إلى نفوس "إخوة ثانوي" ، وصار الملتزمون فضلا عن " المؤلفة قلوبهم " يتخلفون عن لقاءاتنا الودية التي كنا نتجاذب فيها أطراف أحاديث عابرة ، إلى جانب الحديث في شؤون الدعوة وشجونها . وحين كنت أسألهم عن دواعي تخلفهم كانوا يجيبونني بعدم اعتقادهم بجدوى العمل بهذه الطريقة ، فأذكرهم بحيثيات قرار الجماعة عدم

اللجوء إلى الدعوة العلنية أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حفاظا على بقاء العمل الإسلامي في المدارس الثانوية ، ثم أذكرهم أيضا بأن النبي أوصانا بأن نعمل للإسلام في أي موقع ، سواء في مقدمة الجيوش أو في مؤخرتها .

لم أفلح كثيرا في إقناعهم ، وبدا واضحا أننا نفقد أرضا كسبناها سابقا ولابد من الإقدام على أمر ما لبث النشاط في صفوف الإخوة . وعلى هذا اغتنمنا فرصة قيام أحد الطلاب بمعاكسة فتيات مدرسة مجاورة وقمنا بحملة أمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقط لإثبات الوجود . وقد قمت بتلك الخطوة مخالفا أوامر الجماعة ، مما عرضني للمساءلة والملامة .

ويبدو أن الإخوة لم يكونوا وحدهم المتبرمين من هدوء الأوضاع في المدارس الثانوية ، بل كان مسؤولو الأمن يشاركونهم تبرمهم . فالمدارس الثانوية هدف سهل لمن أراد من المسؤولين الإيجاء بأهمية الدور الذي يقوم به ، ومن ثم فمن مصلحته أن يحدث شيء ما بين الحين والآخر يستدعي تدخله السريع والمؤثر . وذات مرة فوجئت وأنا أسير في ملعب المدرسة ، بمندوب أمن الدولة المناوب يناديني قائلا " تعال يا حمار " . لم أكن على معرفة سابقة به ، فتوقعت أنه يمزح مع زميلي الذي يسير إلى جواري ، فلم أرد عليه . لكنه سرعان ما تقدم مني وسدد لكمي إلى صدري ، وعلى الفور لكمته على وجه قائلا " نزل إيدك يا ستين حمار " . ولما جذبته من قميصه أبعدني الطلاب عنه ، فقال لي : اتبعني إلى مكتب المدير . صعدت خلفه وأنا أتوعده في صوت عال ، فتجمع الطلاب والمدرسون ليروا ما حدث . وأمام مكتب المدير رحت أصرخ : " القصاص يا كلب ، القصاص يا كلب " ، فإذا به يحاول أن يطيب خاطري قائلا " أنا زي أبوك" فقلت له " أنت لا شيء ولا تساوي شيء " ، ثم تركته ومضيت .

كان هذا الرجل يعمل وكيلا للمدرسة ، إضافة إلى عمله الرسمي مندوبا لأمن الدولة . كان طويلا وضخما وأسود اللون مع عينين بياضهما أحمر ، مما يكسبه مظهرا مخيفا ، لدرجة أن الطلاب سموه " الشيطان " بسبب شكله المخيف وطبيعته القاسية . أما أنا الضعيف البنية ضعفا باديا ، والمهدد بالنقل من المدرسة في أي

لحظة ، فقد انتهى بي الموقف بأن أهنت هذا الرجل أمام الطلاب والمدرسين من دون أن أتعرض للعقاب . وهذا زادني يقينا بأنني على حق ، وأن الله يعزني لأني أعز دينه وأنتصر لأمره . وفكرت أن رجلا كهذا ما كان ليخاف مني ، وما كنت قادرا أصلا على مواجهته ، لولا استقوائي بشعوري بالانتماء إلى الجماعة . وعلى الجانب الآخر أكدت لي هذه الحادثة أن النصر لنا لا محالة . فهؤلاء الذين يعملون لصالح أمن الدولة قوم بلا قضية ، ومستعدون لبيع أنفسهم في أي لحظة . أما نحن فإن الله يكسبنا ثباتا في مواقف لم نكن لنثبت فيها إذا تركنا لأنفسنا . لقد أعادت لي الحادثة هذه ثقتي بنفسي ، وأعادت للجماعة كثيرا من الهيبة وإثبات الوجود اللذين فقدتهما في الفترة السابقة .

قبل ثلاثة أشهر كان الإخوة في مدرستي الجديدة فرحين بقدومي إلى المدرسة ، على اعتبار أن العمل الإسلامي فيها سيشهد ازدهارا وستصبح المدرسة موضع اهتمام لوجود أمير المدارس الثانوية فيها . لكن هاهم اليوم يجتمعون في أحد المساجد للمطالبة بعزلي لأني تسببت في تراجع العمل الإسلامي في المدرسة . وبالفعل اتخذ القرار ، وفي اليوم التالي تلقيت رسالة من الأخ المسؤول عن العمل في المدارس الثانوية في قيادة الجماعة يخبرني فيها أني من الآن فصاعدا لم أعد أميرا " للجماعة الإسلامية " في المدارس الثانوية . فأرسلت إليه رسالة أعلمه بقبولي القرار ومذكرا إياه بأن خالدا بن الوليد عزل من قيادة جيش المسلمين وهو في أوج انتصاراته ، فلم يجبني ، مع أنني أشرت له ضمنا في رسالتي بأنني نفذت السياسة التي رسمها الإخوة والمتفق عليها معه شخصيا . وعلى ذلك فقد كان الأجدر ، إن كانت هذه السياسة فاشلة ، أن يعزل هو بدلا مني .

استمر العمل الإسلامي في المدرسة على الوتيرة نفسها ، ولم تختلف الحال كثيرا بعد تعيين أمير جديد . وبعد أيام صدر أمر أمني جديد بنقلي من المدرسة ، ولكن مديرها تدخل شخصيا لمنع تنفيذ هذا الأمر ، معتبرا أنني لم أفعل شيئا يضر المدرسة أو يدينني ، وأنني طالب حسن السير والسلوك . وقد أعطاني موقفه هذا دفعة معنوية كبيرة مع اقتراب امتحانات آخر العام . فنجحت بتفوق ، بل حزت

المرتبة الأولى بين الناجحين في مدرستي كلها . وهذا ما سمح لي بالـــدخول إلـــى كلية الطب ، فصرت مثالا يحتذى في نظر جيران منزلنا الذين تكرر كثيرا مشهد قدومهم لزيارتنا مهنئين . وكم سمعتهم في نهاية الزيارة يقولون إنهم اعتقدوا أنـــي لن أنكون إلا من الفاشلين ، " لكن بسم الله ما شاء الله ، تدين وتفوق .. الله أكبر ، الله صل على النبي ، ربنا يحفظه كدة على طول " .

وفي تلك الإجازة الصيفية نقل القادة الكبار في الجماعة من سجن ليمان طرة إلـــى سجن أسيوط لأداء امتحانات آخر العام الجامعية ، فيما طلب من أن أكتب مراجعة عن العمل داخل المدارس الثانوية لعرضها على الإخوة . وأذكر أنني كتبت ثلاثـــة عشر ملاحظة رأيت أنها جديرة بالالتفات إليها في ما يخص العمل الإسلامي داخل المدارس الثانوية ، وانتقدت الأخ المسؤول عن ذلك العمل انتقادا لاذعا . وقد أثنى عليّ الشيخ عاصم عبد الماجد أحد قيادات الجماعة داخل السجون ، ووجـــه لومـــا للأخ المسؤول عن " إخوة ثانوي " .

لقد كان من حق أي فرد من أفراد الجماعة انتقاد قراراتها بلا تردد ، ما دام يتجه الاتجاه الصحيح في تقديم شكواه . وكان هذا يشعرني ويشعر الجميع أننا جزء من قرارات الجماعة ، وأننا ننتمي كليا وجزئيا إلى هذا الكيان ، ولسنا أعضـــاء مـــن الدرجة الثانية أو الثالثة . والقرارات الوحيدة التي لم يكن لأحد أن يناقشها منتقـــدا هي الفتاوى ، وإن كان لكل فرد الحق في مناقشتها مستفسرا .

فأصحاب هذه الفتاوى يفترض أن يكونوا على درجة معينة من الإحاطـــة بـــالعلوم الشرعية ، إضافة إلى صفات شخصية أخرى تجعل المرء عـــدلا بـــين النـــاس ، 揀¿□Ë悗Á□ فات الفكرية بين الجماعات الإســـلامية ، ودراســـة كتـــاب " محاكمة النظام السياسي المصري " ، وكتاب " الاتجاهات الفكريـــة فـــي القـــرن العشرين " . ودرسنا أيضا كتاب " العواصم من القواصم " ، وهو كتـــاب ســـلفي يبحث في التاريخ الإسلامي مبرئاً أشهر رموزه من التهم المحيطة بهم .

ولهذا الكتاب أهمية تأسيسية في الفكر الإسلامي الرسالي الملتزم . ورب قائل إن هذا تاريخ ، وإن أحدا لن يسأل الجماعات الإسلامية عنه أو يحملها مسؤوليته ، فلماذا تعنى كثيرا بالدفاع عن رموزه وإزالة أي شبهة تحيط بهم ؟

والجواب أن هذا التاريخ هو زاد الجماعات الإسلامية بلا استثناء ، وهو الداعية إلى الفكر الأصولي بالنيابة عنهم . وأي شبهة تحيط بالتاريخ الإسلامي ورموزه هي شبهة تحيط بالفكر الإسلامي كله ، والسياسي منه في وجه خاص . وبحسب الكتاب فإن عليا وعبد الله بن الزبير ــ ابن أخت عائشة وحليفها في موقعة الجمل ــ كانا يتقاتلان في النهار ثم يتزاوران في الليل !! فعائشة وعلي كلاهما من المبشرين بالجنة ، لكن التاريخ الإسلامي واجه مشكلة حين تقاتل المبشران . وبحسب الكتاب أيضا فإن عثمان بن عفان لم يتحيز لأقاربه في توليتهم المناصب الكبرى في دولة الإسلام ، وإنما جار عليه قاتلوه . والدليل على ذلك أن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرت عثمان بالجنة ، وأن عثمان كان صائما حين قتل ، وسقط دمه على آية من كتاب الله يقول الله فيها " فسيكفيكهم الله " . فجوهر الإنسان في الإسلام يسبق وجوده ، وهو مدون في اللوح المحفوظ من قبل مولده بأربعين ألف عام إن كان شقيا أو سعيدا ، ومن أهل الجنة أو من أهل النار.

الداعية. الخطيب :

حين بدأت الدراسة في كلية الطب وجدتني أخطو أولى خطواتي في الكلية بلا مبالاة ، مفتقدا كل حماسة أو رغبة في التفوق ، على اعتبار أن هذا أمر دنيوي لن يفيدني في آخرتي ، وأن مهمتي الأولى والكبرى هي السعي لإقامة دولة الإسلام القوية العزيزة القادرة على تحرير أرض الإسلام السليبة في فلسطين والأندلس ، وعلى فرض النموذج الإسلامي في العالم كله ، أو على حد تعبير الجماعة "إدخال الناس الجنة مقيدين بالسلاسل " .

أول ما فاجأني في الجامعة هو تلك الهوة الساحقة التي باعدت بيني وبين أصدقائي. كان بعض من هؤلاء زملائي في الدراسة منذ اثني عشر عاما ،

وبعضهم منذ ستة أعوام . لكن الاختلاف بيننا تجلى في طريقة الكلام والزي والاهتمامات :

أقابلهم في الشارع مرتديا جلبابا قصيرا وتحته بنطالا ، وهم يرتدون بناطيل جينز ضيقة . أشكرهم قائلا : جزاك الله خيرا ، وهم يشكرونني قائلين : شكرا أو مرسي. وهذه الاختلافات البسيطة واليومية باعدت بيني وبينهم تدريجيا دون حاجة إلى أن أقرر البعد أو القرب .

ورغم ابتعادي في الكلية عن أصدقائي القدامي ومقتي إياهم إن أتوا ما يخالف الإسلام ، ظللت محبوبا من الطلاب جميعا ، إذ كنت أتكفل بجمع أوراق المحاضرات واستنساخها وتوزيعها على الزملاء ، وتنظيم دخول الطلاب إلى قاعة المحاضرات وخروجهم منها . هذا إضافة إلى قيامي بتأمين أجزاء من هياكل عظمية كي يدرس عليها غير القادرين على شرائها من الطلاب .

وبصرف النظر عن الحب والكره أو القرب والبعد ، فالناس عامة في المجتمعات التقليدية ــ حتى الطلاب الجامعيون منهم ــ يكبرون " العالمين بالدين " ، والحائزين الدرجات العلمية الكبيرة . وقد يرتبط هذا الإكبار بالثقافة العامة وبالتعليم التلقيني الذي نتلقاه في مدارسنا . فحافظ كتاب الله ، أو ذاك الذي أفنى عمره في نيل الدرجات العلمية ، هما النموذجان الجديران بالاحترام واللذان في عقل الواحد منهما حوالي عشرة أطنان من المعلومات التي يسترجعها بقدرة تذهل الناس ، ففي ثقافتنا ليس التفكير ملكة الإنسان العظمى ، وليست القدرة على النقد هي المهارة التي يحتاج إليها . أضف إلى ذلك أن الناس عامة يميلون إلى التعاطف مع من يتعرض للضيم أو المعاناة . فكم كنت أجد تعاطفا كبيرا من الطلاب ، خصوصا حين تكون الأوضاع الأمنية في أسيوط سيئة وتحول دون حضوري إلى الجامعة ، وحين اضطررت يوما لحلق لحيتي وأنا في السنة الجامعية الأولى ، وذهبت إلى الكلية منكس الرأس مثل محمود المليجي في فيلم "الأرض" ، وجدت الطلاب يحيطون بي باهتمام بالغ ويحاولون أن يوفروا لي ما فاتني من دروس .

كنت في السابعة عشرة عندما بدأت دراستي الجامعية عام ١٩٨٩م ، وكنت خجولا ميالا إلى القراءة والكتابة والمناقشة أكثر من ميلي إلى الحديث المنفرد أمام الجموع. وحاولت الجماعة إكسابي مهارة الخطابة بتدريبي عليها أمام مجموعة منتقاة من الإخوة ، لكنني فشلت مرتين في المحافظة على تسلسل أفكاري ومواصلة الخطبة . كنت حين أواجه الناس أنسى كل ما حفظت وأتلعثم في الكلام ثم أتوقف ، فأدركت أنني لست من أصحاب هذه الملكة ، وآلمني هذا ألما شديدا ، لأنني كنت أتخيل نفسي دائما واقفا أمام الجموع أخطب وأقود المسيرات ، أصرخ فيحمر وجهي وأضرب الأرض بقدمي .

لكن فشلي في الخطابة أمام هذه المجموعة من الإخوة أبقاني مصرا على أن أتعلم الخطابة ، فأخذت أعد خطبا وأحفظها عن ظهر قلب وأرددها أمام المرآة وعلى منبر المسجد في وقت خلوه من الناس . وفيما كنت ذات يوم ذاهبا إلى المسجد لصلاة العشاء قابلني أحد الإخوة الكبار وقال بلهجة ممتعضة : " مش ناوي تشد حيلك " ، في إشارة منه إلى ضعف قدرتي على الخطابة وعدم استفادة الإخوة مني في أغراض الدعوة ، إلى جانب استثنائي من أغراض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . أشعرني كلام الأخ بإحراج ، وكأنما لا فائدة مني ترجى ، فذهبت على الفور إلى مسجد صغير يبعد عن محل إقامتي ولا يعرفني فيه أحد . وهناك صليت العشاء ثم دفعت جسمي دفعا إلى جوار الإمام لأكون في مواجهة الناس ، وشرعت في إلقاء خطبتي . كنت أتحدث كتلميذ يسمع لأستاذه نصا من كتاب المحفوظات . لم أستطع تحريك يدي أو التحكم في ملامح وجهي أو نبرات صوتي. شجعتني تلك التجربة فكررتها في مساجد صغيرة عدة ، حتى استطعت كسر الحاجز النفسي بيني وبين الناس.

كان صعودي مدرج الكلية هو خطوتي الأولى في معراج الخطابة . وحين صعدت إلى المدرج هالني العدد الهائل من الطلاب أمامي ، وترددت لحظة خائفا مأخوذا ، بيد أني أدركت أن لا مفر من الإقدام ، فقرعت الطاولة بيدي كي يلتفت الطلاب إلي ويصمتوا وينصتوا ، ثم بدأت أخطب ، لكن الأحاديث الجانبية سرعان ما

بدأت وكادت تغيب صوتي ، فخلت أنني أخطب لنفسي ، ولم ينقذني من هذا الموقف المؤلم سوى دخول الأستاذ .

في خطبتي التالية كنت قد تعلمت الدرس : على ألا أتحدث أبدا والناس منشغلون عني ، بل يجب أن أصمت حتى ينصتوا تماما . وبالفعل ، ما أن بدأت خطبتي وعلا صوت الطلاب ، حتى توقفت عن الكلام وصمت ، ثم ركزت نظري محدقا في المجموعات التي تتحدث أحاديث جانبية . وباللغة العامية خاطبتهم ، فصمت الجميع ، كأنما أتيت بمعجزة ، ذلك أنني لجأت على الفور إلى القول السحري : "لما بتسكتوا وأنا بتكلم أنتو مش بتسكتوا احتراما لي أنا .. لا .. لأن أنا زي زيكم. أنتو بتسكتوا احتراما لكلام الله ورسوله " ثم تركت المنصة عائدا إلى مكاني في المدرج رافضا أن أكمل خطبتي .

في المرة التالية لم يتحدث أحد أبدا وأنا أخطب ، فمنحني إنصات الطلاب لي خطيبا ثقة في نفسي . لا أذكر أنني تحدثت مرة واحدة في خطبي عن الجنة والنار ، أو معجزات الأنبياء أو الحاكمية . كنت مقتنعا أن التفاصيل اليومية البسيطة هي الأقرب إلى الناس ، وهي التي تقربني من زملائي ، ولما وقع في يدي يوما خطاب غرامي قرأته على الطلاب من على منصة الخطابة ، فضحكنا معا من أسلوبه الساذج ومن المشاعر الضحلة التي يعبر عنها ، من ثم عرجت على الاختلاط بين الجنسين ومضاره وحكم الإسلام فيه . ومن مشهد رأيت فيه زميلا يواعد زميلة بالقرب من بيتنا ، استلهمت شواهد خطبتي التالية عن أحاديث الشباب التي تعرّض بالفتيات في غيبتهن . وبسبب أمثال هذا الخطب اقتربت أكثر من زملائي ، وبسببها أيضا شكاني أحد أفراد الجماعة ــ كانت أختله زميلتي ــ على قيادتها . لكنني دافعت عن وجهة نظري حتى انتهينا إلى الاتفاق على وضع حد لكلامي لئلا أفقد احترام الطلابي لي !!

بعد ذلك انتقلت إلى مرحلة أخرى في اختيار مواضيع أحاديثي . واليوم أنظر إلى تلك المواضيع كمثال على الثقافة الضحلة السطحية . وأنا من كنت مغرما بكتب سيد قطب ومحمد قطب التي تتناول موضوع الإنسان بين المادية والإسلام ، كنت

أحفظ منها مصطلحات لا نستخدمها كثيرا مثل طوطم وتابو ، ثم أتعمد اســتخدامها في خطبي لأبهر الطلاب بمدى معرفتي الثقافية وبعدم اقتصــارها علــى الثقافــة الدينية فقط . أو كنت أقرأ فصلا عن اليهود الثلاثة ماركس ودركــايم وفرويــد ، وأتحدث في خطبتي عن المؤامرة اليهودية لتخريب الفكر الإنساني . كانت نظرتي للأمور المتعلقة بالفكر الإنساني سطحية وتنقل أحكاما مسبقة . فهي فــي نظــري طريق آخر غير طريق الحق ، " فماذا بعد الحق إلا الضــلال ؟ " وهــي أيضــا إعراض عن الطريق الذي اختاره الله للبشر ليسيروا على هديه فيسعدوا في الدنيا والآخرة .

بين الناس :

لم تكن الخطابة وسيلة الدعوة الوحيدة ، بل هي على العكس تماما أقل الوسائل فاعلية . فالاتصــال الشخصي المباشر هو الذي ينمي العلاقات ويجعلها متماسكة . وهو الذي ترجو الجماعة أن يؤدي إلى أن يلتزم المرء في صفوفها ويتبنى ما تدعو إليه . فالخطابة دائما آنية ، وفاعليتها عابرة ، وقــد يتــأثر الإنسان بها تأثرا شديدا ثم ينسى ما قيل تماما بعد خمس دقــائق . أمــا الــدعوة□Ë悗Á□ئ

□جم————————

ا搈□□□□□□"□□ǿ摖□□t□ʌ□□□□▯ □□□،□:ЇЫЇЫ¤*□□□□

¿□Ё悗Á□摽□□□□□□□–摽P暟ɨ棋$搿搿搿搿搿搿

——————————جم□

١搈□□□□□□"□□∅搽□□t□٨□□□□▯□□□،□:ЬЫЫ¤*□□□□

¿□Ë悗Á□摞□□□□□□–摞P皑ɨ椇$擉擉擉擉擉擉

□جم——————————

□□□□"□□ǿ擦□□t□⋏□□□□▯□□□˛□:ЬЬЫ¤*□□□□
¿□Ë悗Á□摞□□□□□□□−摞P暟ɨ椇$搊搊搊搊搊搊˺搈□
——————————جم□

١搈□□□□□□□"□□∅捺□□t□٨□□□□▯□□□،□:ЇЫЇЫЇ¤*□□□□

¿□Ë悗Á□摖□□□□□□□−摖P暟ꞁ棋$擟擟擟擟擟擟

——————————جم□

١搈□□□□□□□"□□∅捺□□t□٨□□□□▯ □□□،□:ЇЫЫ¤*□□□□

¿□Ë悗Á□摖□□□□□□□–摖P曀ɨ棋$搿搿搿搿搿搿

□جم————————

١搈□□□□□□"□□ǿ搽□□t□٨□□□□▯ □□□،□:ЇЫЇЫЇ¤*□□□□

¿□Ë悗Á□摞□□□□□□□−摞P暟ɨ椇$摦摦摦摦摦摦

————————————جم□

١搈□□□□□□□"□□ǿ搽□□t□٨□□□□▯ □□□،□:ЁЫЁЫ¤*□□□□
搊搊

¿□Ë悗Á□摷□□□□□□□−摷P暟ɨ椇$搊搊搊搊

□جم————————————

١搭□□□□□□"□□ǿ搽□□t□٨□□□□▯ □□□،□:ȉȉȉ¤*□□□□
اعتبرناهـــا نقـــائص ــ ا揀□□□□□□−揀P嘧ｉ棋$搊搊搊搊搊搊
وسقطاتهم ، بينما أحكي لهم أنا عن سبيل التوبة إلى الله عن الذنوب والإقلاع عن الرذائل ، موحيا بلا تصريح أنني عنها مترفع ومنها متحصن ، وليست تلك هـــي الحقيقية.

كم أندم الآن على تلك القوة الكاذبة التي تقنعت بها الناس وأقمتها بيني وبينهم سدى ، فلم يعد لديّ أصدقاء حقيقيون ، بل صار لي حواريون أغضب غضبا شـــديدا إن أهانني أحد إهانة عادية كتلك التي يتبادلها الأصدقاء . كنت أحيانا أسكت عن انتقاد أحدهم متظاهرا بالحلم والتواضع ، وعالما في قرارا نفسي أن أحـــدهم ســـينبري للقيام عني بمهمة الرد على منتقدي وتذكيره أنه يتحدث إلى صاحب العصمة .

وبعد سنوات عدة ، حين تغيرت نظرتي إلى الإنسان وإلى نفسي ، أدركت كم هـــو جميل أن تخطئ وأن تفعل الخير مدركا أنك قادر على الشـــر ، وكـــم جميـــل أن تحكي لصديق أو لصديقة عن حقيقتك وعن مواطن الضعف فيك .

لكن هذا لا يعني أنني لم أكن أستمتع بموقعي بـــين النـــاس ، وبإحســـاس النـــاس وإحساسي بأنني مختلف وأني ارتضيت أن أسلك هذا الطريـــق الصـــعب حبـــا لله ورسوله وسعيا لإقامة شرعة الله في الأرض . وقد أشرت من قبل إلـــى وقـــوف زملائي إلى جانبي حين كنت غير قادر على الحضور إلى الجامعة بسبب الموقف الأمني . لكن الموقف الذي لا أنساه حدث حين اقتحمت قوات الأمن علينا " الجامع الكبير " ، وهو مسجد قديم في أحد الأحياء الأثرية في أســـيوط . وهربـــت مـــع الهاربين من الأبواب الخلفية للمسجد حيث يسكن أناس بسطاء في بيـــوت قديمـــة أمامها مداجن مبنية يدويا لتربية الفراخ والحمام . وما أن رأيتني امرأة في العقـــد الرابع من عمرها هاربا بينما صوت الرصاص يعلو قريبا منا ، حتى أخذتني مـــن

يدي وخبأتني في أحد المداجن إلى أن هدأت الأوضاع فاستضافني أهلها قليلا في بيتهم قبل أن أعود إلى بيتي .

فتحت لي " الجماعة الإسلامية " آفاقا للتمرد على التربية البورجوازية المحافظة التي كنت أتلقاها في مدرسة راهبات فرانسيسكان وفي بيتنا ، وجعلتني أغوص في حياة الطبقات الاجتماعية المختلفة ، مستمعا إلى أحاديث تفصيلية ودقيقة عن الحياة اليومية لهؤلاء الناس الذين يعيشون تحت خط الفقر ، وأولئك الذين لا يعرفون كيف ينفقون أموالهم . الكل يعاني ، والكل يشكو ، والكل يسرب إلي أحزانه . فهذا صديق له ستة إخوة وأخوات وهو المعيل الوحيد لهم وعمره لا يتجاوز السابعة عشرة ويدرس في معهد أزهري ويدعو الله ليل نهار أن يفتح عليه من عنده ، فأعطيته مرة ثلاثين جنيها أعلم أنها لن تطعم من يعيلهم ليومين اثنين . وهذا آخر عاش سنة في المجر يدرس الطب ، لأن علاماته في الثانوية لم تؤهله لدخول كلية الطب في جامعة مصرية . ولما عاد وجد أمه ، وهي أستاذة جامعية ، متزوجة حديثا بعد سنين من وفاة والده . وكلما اشتكى لها من معاملة زوجها له ، تذكره بأنه أنفق سبعين ألف جنيه في السنة التي قضاها في المجر . أما لي فكان يشكو من كثرة معصيته لله ، ويسألني كيف تستقيم حاله لعل الله يريح نفسه . ويستشهد على إيمانه بالله بأنه كلما استمع إلى القرآن أحس برعشة تسري في جسده.

احترت كيف أساعده فذهبت إلى قيادي في الجماعة وحكيت له قصة العائد من المجر ، فاستعاذ بالله من هؤلاء الناس قائلا لو أن لديه سبعين ألف جنيه لقلب نظام الحكم في مصر . ثم حذرني من هذه الفئة من الناس ناصحا إياي أن أبتعد عنهم ، إذ لا خير يرجى فيهم ، وخوفا من أن تستميل أحاديثهم قلبي فانشغل بالقصص الفارغة التي تعيشها تلك الطبقات المرفهة . ولا أنكر أن كلام العائد من المجر لمس وترا في مشاعري ، فقد مال قلبي إلى بعض التفاصيل التي كنت أسمعها منه عن علاقاته بالفتيات في أسيوط ، وعن تورطه في مشاكل بسبب تلك العلاقات . كم تمنيت ــ وكنت في السابعة عشرة من عمري ــ لو أعيش مرة مثل هذه الحياة

وأعاني مثله من تلك المشاكل . كأنه أحيا بي رغبة إلى أن أعيش هموما تعنيني وحدى وتشعرني بإنسانيتي . إنه يفعل شيئا لا أستطيع أن أفعله . شيء شخصي خالص ، يعتمد على قدراته الذاتية وجاذبيته ، يسمح له بالتجدد والابتكار ، بينما أنا غارق في عبادة فكرة عامة تتحكم في حياتي كلها ، ونجاحي مرتبط بنجاحها ومؤجل حتى ذلك الحين . نعم كانت إقامة علاقات بالفتيات شرا ومعصية ورجسا ، ولكنها أيضا شر لا أقدر عليه ، فكيف أثاب على الإقلاع عنها ما دامت عصية عليّ أصلا!.

فالثائر لا ينتحر لأن الفكرة التي يتبناها طويل طريق الوصول إليها ، لكنه قد ينتحر يأسا من وصل محبوبته . والحق أن لا وجود لشاغل عظيم وشاغل حقير ، ولا أدعي وجود مشغول عظيم ومشغول تافه ، لكن الشاغل نفسه قد يعظم في عيون أناس ويحقر في عيون آخرين ، وقد يعظم ويحقر في عيني الشخص ذاته في أوقات مختلفة . ولولا ذلك لكانت الحياة رتيبة والإنسان مملا .

الفصل الثاني
الجنس

أعلنت عن نفسي " ملتزما إسلاميا " في شارعنا بأن وقفت على شرفة بيتنا في الطبقة الثانية ممسكا بندقيتي الصيد مصوبا فوهتها إلى مدخل العمارة المقابلة حيث كان يلعب أولاد جيراننا الصبيان والبنات " صياد السمك " (يقف لاعبان على مسافة حوالي عشرة أمتار ويتقاذفان الكرة بينهما محاولين أن يصيبا بها لاعبي الفريق المنافس في المسافة الفاصلة) . ظللت مصوبا فوهة البندقية نحو المدخل حتى وصلت إليه الكرة التي ركضت بنت الجيران لإحضارها ، فأطلقت من البندقية طلقة أصابت الكرة وسمرت الفتاة الصغيرة في مكانها ، قبل أن تلتفت إليّ وتندفع إلى الوراء مندهشة مصعوقة . وسرعان ما تجمع حولها أترابها محدقين في الكرة من دون أن يجرؤ أحد منهم على التقدم لالتقاطها .

ووصلت الرسالة !

كان هدفي مما فعلته الحؤول بين هؤلاء الأولاد وبين الوقوع في الخطيئة مبكرا، لأن " النظرة بريد الزنا " . فعلت هذا بعدما كان فتى من أبناء الجيران قد أخبرني أنه يتعمد إلقاء الكرة بين ساقي الفتيات لكي تضطر الواحدة منهن إلى أن ترفع رداءها وتقفز لتفاديها ، فيستطيع هو أن يرى ساقيها وثوبها الداخلي. ويومها اعتبرت أنني قمت بالفعل الأول في " تغيير المنكر" الذي تدعو إليه " الجماعة الإسلامية " . لكنني بعد سنتين من هذه الواقعة صرت أقف ساعات طوالا من الليل خلف زجاج النافذة أراقب هؤلاء الفتيات اللاتي يسكن قبالتنا متحينا فرصة أن أرى إحداهن تخلع ملابسها أو تستلقي على سريرها ، فينحسر رداؤها عن ساقيها.

الاحتلام والتكليف :

كانت معرفة بـ " الجماعة الإسلامية " قد تزامنت مع انتقالي من الطفولة إلى سن البلوغ في الرابعة عشرة من عمري . ومثل معظم أصدقائي في هذا العمر كنت

ميالا إلى النظرة الرومانسية للأمور معتقدا أن الجنس أمر نمارسه مع من لا نحب. أما من أحبها فإن علاقتي بها يجب أن تسمو عن هذه الأمور المشينة. كانت "غزواتي" الجنسية قبل ذلك لا تتجاوز التجمع في الخفاء مع أصدقاء الطفولة لمشاهدة صور جنسية أو لمشاهدة أعضائنا ، مقارنين أي من عضوه أكبر من عضو الآخر ، ومستمعين إلى روايات مختلفة عن التجارب الجنسية الجريئة لبعض الأصدقاء . وحين علمت في عمر الحادية عشرة أننا نأتي إلى الدنيا عن طريق الممارسة الجنسية أصبت بحالة من القرف الشديد والنفور من والديّ ، بعدما تعاركت مع جاري الذي أخبرني بذلك واتهمته بتعمد إهانتي .

هذه الميول الطوباوية يسرت عليّ تقبل أحكام الإسلامي بالجنس ، فبعد فترة وجيزة من التزامي امتنعت عن مشاهدة التلفزيون الذي يعرض صور فتيات غير مستترات يحركن الشهوة ويحرضن على المعصية . ثم كان دليل أسرتي الأول على تطرفي لدى لقائنا بعض أقاربي في محطة القطار بالقاهرة ، وقيامي بمصافحة الرجال منهم من دون النساء باعتبارهن من غير المحارم . فالرسول قال : " لئن يضع أحدكم في يده جمرة من نار خير له من أن يلمس يد امرأة لا تحل له " .

حتى الخامسة عشرة من عمري لم أكن قد احتلمت . وكان هذا يشكل لي هاجسا وخوفا من أنني مصاب بضعف في ذكورتي . لكن أصدقائي قالوا لي إن هذا من حسن حظي ، لأن الاحتلام يفرض عليّ تبعات ويضعني في مواقف محرجة ، كما يعني شرعا أنني صرت مكلفا ومحاسبا على كل صغيرة وكبيرة . وحين احتلمت للمرة الأولى كدت أطير فرحا وأخبرت الأصدقاء جميعا ، كأنما خضت تجربتي الجنسية الأولى ، وأحسست أنني صرت أملك موقعا في القائمة الإلهية كإنسان مكلف . لكن الفرحة لم تدم طويلا ، إذ صار الأمر مرهقا حين أصحو لصلاة الفجر محتلما ، فأضطر في برد الشتاء إلى الاغتسال قبل الذهاب إلى المسجد . وكثيرا ما كنت استخدم الماء البارد حين يتعذر استخدام الماء الساخن لأي سبب من الأسباب . وقد رحت أفعل هذا بعد أن حكى لي أحد الأخوة عن استيقاظه

محتلما لصلاة الفجر واضطراره للاغتسال بماء بارد كالثلج خرج من تحته يحس دفء ليالي الصيف .

صرت أكره الاحتلام كرها شديدا ، فقد حاولت تكرارا تجربة هذا الأخ ، لكنني لم أحس إحساسه بالدفء كما كنت أظن . لذا رحت أمارس العادة السرية قبل الاستحمام وفي الوقت الذي أختاره ، كي لا أحتلم واضطر للاغتسال في وقت لم أختره . لكن العادة السرية نفسها جعلتني أشعر بالذنب وعمقت كراهيتي للجنس وإحساسي بالضعف إزاءه . ثم ازداد الأمر سوءا فأمسيت حين أحتلم أراني أمارس الجنس مع محارمي البعيدات أو عجائز قبيحات .

الماء المثير :

كم كنت أقول لنفسي في هذه الفترة لو أن الله لم يخلق فينا غريزة الجنس لضمنت الجنة . وروى لي الشيخ طارق حديثا يقول فيه " من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه ضمنت له الجنة " ، فصممت على كسر شهوتي إلى النساء التي قال عنها الرسول : " اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت النسا". وكان الحل الإسلامي لمشكلة الجنس هو الصيام : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء (وقاية)" . ومن ثم صرت أصوم على نحو منتظم يومي الاثنين والخميس ، قبل أن أصوم يوما وأفطر في اليوم الذي يليه ، جامعا بين نوعي الصيام ، فبلغ إجمالي ما أصومه أسبوعيا خمسة أيام . هكذا كسرت جزءا من شهوتي وخسرت قدرا من صحتي.

تعلمنا في أحد دروس الآداب الإسلامية أن من غير المستحب أن ينظر المرء إلى عورة نفسه ، لأن عثمان بن عفان الذي كان أشد الصحابة حياء ، لم ينظر إلى "عورته" قط . كما لا ينبغي أن نلمس عورتنا بيدنا اليمنى صونا لتلك اليد من لمس العورات .

أما أنا فأحسست أن عدم النظر إلى العورة أبدا صعب من الناحية العملية ، وحاولت الامتناع عنه قدر استطاعتي ، واعتدت سريعا على عدم لمس العورة باليد اليمنى ، في الاستنجاء والاغتسال وفي ممارسة العادة السرية .

لا أدري كيف أثرت عليّ تلك الترتيبات والمستحبات والمكروهات في تدبير أمور الحياة اليومية التي لم أكن معتادا على التفكير فيها قبل ممارستها . لكنني صرت شديد الإحساس بوجود عورتي ، ورحت أهجس بها كيف تبدو في البنطال ، وأخشى من الانتصاب في وقت ما ، فإذا به يحدث فجأة ويباغتني ، فامتنعت تماما عن ارتداء البناطيل الضيقة ، ولجأت إلى ارتداء قمصان طويلة فوقها لتغطية تلك العورة التي رحت أرتدي قطعتين داخليتين سفليتين ، لإحكام السيطرة عليها.

وكان الإخوة ينبهوننا إلى ضرورة التعامل بحذر مع الفتى الأمرد الذي لم تنبت له لحية بعد ، إذ ينبغي عدم احتضانه عند المصافحة كما كنا نفعل عادة مع أي أخ . كذلك ينبغي لا ينبغي الاختلاء بأمثال هذا الفتى ، ولو في درس القرآن .

وكان بيننا فتى أمرد يصغرنا بسنوات ، فصرت أتجنب التعامل معه ولا أبتسم له ، وأرتاب في أمر من يتقربون منه . وفي حمام السباحة لاحظت أن أحد الإخوة يتعمد ملامسة هذا الفتى واحتضانه بطريقة مريبة فيما يعلمه السباحة ، فأيقنت أن الإخوة محقون وأن عليّ تجنب الصبيان المردان أيضا وليس الفتيات فقط .

الغريب أن كل هذه الإجراءات ، وإن خففت من حدة رغبتي الجنسية جعلتني أثار لأتفه الأسباب . وقد وصلت مرة إلى الإثارة الكاملة من ملمس الماء على جسدي وأنا أستحم . حدث هذا بين صلاتي المغرب والعشاء في يوم من شهر رمضان ، فأخذت أبكي من فرط الشعور بالذنب ، لأن السيئة في رمضان تساوي سبعين سيئة في سواه . لكنني سرعان ما اغتسلت وصليت قيام الليل وأنا ألهج بالدعاء أن يغفر الله لي هذا الذنب العظيم .

ثم جمعتني الظروف بفتاة من أصدقاء الأسرة نهارا كاملا ، ووجدت نفسي غير قادر على استبعاد فكرة أن أضمها من الخلف وهي تتصفح الكتب الموضوعة على رفوف المكتبة . كنت أقترب منها ثم أبتعد وأحوم حولها ثم أعود فأقترب جدا دون

أن تشعر بي ، ثم أبتعد . وكي أتحايل على هذا الشعور صرت أقترب منها وهي جالسة وأقول لها لماذا لا ترتدين الحجاب ، إنك الآن كبيرة ؟ أتظاهر بأنني أخنقها تأديبا لها ، بينما استمتع في اقترابي منها وفي ملامستي جسدها .

وفي سن السادسة عشر حاولت أن أضع حلا مبكرا لمشكلة الجنس ، فأصررت على خطبة فتاة كان بين أهلي وأهلها صلة نسب . وبعد مشاحنات واستعطاف بيني وبين أبي وافق على أن يرسل إلى أهلها من يطلب يدها قبل أن يذهب إليهم بنفسه . لكن الموضوع أرجئ بالطبع من قبل أهلها الذين فوجئوا بعريس في السادسة عشرة من عمره يتقدم لابنتهم . ثم جاء إليّ أبو الفتاة بعد أن صليت بهم إماما في المسجد وقال لي ساخرا : أخبرني هل بلغت الحلم أم لا ، فإنني أخشى ألا تكون قد بلغت الحلم ومن ثم تبطل الصلاة خلفك !.

كان من أسباب تسرعي في إتمام تلك الخطبة أنني علمت أن الشيخ طارق يوشك على التقدم لتلك الفتاة طالبا يدها ، لكنه تراجع عن ذلك حين علم برغبتي في الاقتران بها إذ " لا يخطب أحدكم فوق خطبة أخيه " .

جند إبليس :

في تلك الفترة كنا نجلس قبل اجتماع الحلقة فنتحدث عن آخر قراءاتنا وفي ما نقرأ وما لا نقرأ . وهذا ينطبق على كل زمرة أو جماعة ، وهو أمر محبب إلى الناس في وجه عام . فبعض الكتب السلفية التي تعتبرها الجماعة مرجعا لها قد تدور عليها الأيام وتستحب عدم قراءتها أو تجيز قراءتها لفئة معينة من الناس دون غيرهم ، وهكذا تروج الكتب الممنوعة ويزداد الإقبال عليها ، وهذا ما حدث مع كتاب " تحفة العروس " ، وهو أحد الكتب السلفية التي تتحدث عن أحكام الجماع وتصف الطريق إلى السعادة الجنسية بين الأزواج من خلال حكايات من أيام "السلف الصالح" . الحكايات هذه هي نوادر عن الجماع وكيف تستطيع المرأة أن تجعل زوجها يصل إلى قمة نشوته دون مخالفته أحكام القرآن والسنة . ويحكي الكتاب عن إحدى أشهر المتغنجات في التاريخ الإسلامي ، وهي عائشة بنت طلحة

التي كانت تجيد فن " الهزر" ، أي إخراج أصوات معينة أثناء الجماع من شأنها أن تجعل الرجل أكثر إثارة . ويمضي الكتاب في شرح فاحش للمواصفات المثلى للأعضاء الجنسية لدى المرأة والرجل . ويسهب في وصف مستفيض لجسد المرأة وما يحب الرجال فيه وما لا يحبون . وذلك من خلال شرح لغوي لألفاظ القرآن التي تتحدث عن المرأة مثل " كواعب " و " أتراب " و " الحور العيون" .

كم كانت قراءتنا لذلك الكتاب تثير شهواتنا على نحو خفي ، كأننا عبر كلماته كنا نتلصص على أجساد نساء متخيلات وأعضائهن ، وربما كانت الكلمات وحدها تطلق ، بلا تخيل أو تهويم ، شهواتنا المكتومة الجامحة .

وبعد الحلقة كان يذوب الجليد بيننا فيسر بعضنا إلى البعض الآخر بما قرأناه رغما عما قررته الجماعة . وكان كتاب " تحفة العروس " وآخر حديث عنوانه " كيف تسعدين زوجك " ، هما أكثر كتابين نتناولهما في أحاديثنا " الجنسية " . فيحكي أخ عن استحباب السلف للتفكير في الحور العيون ورواياتهم الكثيرة ، ومنها أن أحدهم كان نائما عند تابعي مشهور بالتقوى والورع، فلاحظ أنه يتقلب طوال الليل ، فسأله عن سبب ذلك فأجابه التابعي بأنه يتفكر في ما أعد الله له من الحور العيون.

كما كنا نجد متعة في مناقشة الأحكام الإسلامية الخاصة بالممارسة الجنسية والتي تمتلئ بها كتب الفقه الإسلامي ، كحكم الإيلاج من الدبر في القبل ، وحكم النزع (القذف خارج المهبل) ، فيما يقول قائل منا : هل تصدقون أن المرأة لا ينبغي لها أن تنظر إلى عورة زوجها كما أن الرجل لا ينبغي له أن ينظر إلى عورة زوجته؟ ولا يقتصر البوح الجنسي على الكتب وحكاياتها فقط ، بل قد يفاجئك أخ بتطرقه إلى الجنس في مواقع لا تتوقعها ، من ذلك أنني فيما كنت أحكي لأخ جار لنا من قيادات جماعة " الإخوان المسلمين " ، ففوجئت بالأخ يقول لي إنه كان جالسا بالقرب من زوجة هذا القيادي في القطار ذات مرة ، وإنها كانت تنادي على أبنائها من حين إلى آخر ، ثم أضاف : يا أخي إن صوتها فتنة !.

يعيدني هذا إلى الأحكام الإسلامية في صوت المرأة ومتى يكون عورة ومتى لا يكون ، وهل يجوز إلقاء السلام عليها أم لا ، وهل يجوز رد السلام عليها أم لا ، فالنساء هن حبائل الشيطان . والمرأة من جنود إبليس ، فلا ينبغي أن يتبرجن أو يمشين في الأسواق أو يتطيبن . والمرأة الفاضلة على عهد النبي والتابعين كانت إذا خرجت إلى السوق مشت تحتك بالحائط . وفي الحديث " أيما امرأة تعطرت فمرت بقوم فهي كذا وكذا " ، أي زانية . و" من شم رائحة امرأة لم يشم عرف الجنة وإن عرفها ليشم من مسيرة خمسمائة عام " . والتبرج لم يكن فقط مخالفة دينية بل كان ترتيبات اجتماعية أيضا . فقد كان التبرج فرضا على الأمة غير الحرة لدرجة أن عمر بن الخطاب كان يضرب الإماء المحجبات لأنهن يتشبهن بالحرائر .

وكان الزواج يمثل إغراء لأمثالنا من المحرومين الذين يسر لهم إسلامهم الجديد الزواج بشروط ميسرة كما كانت عادة السلف الصالح . فالإسلام يحبذ أن يتزوج المرء بمجرد بلوغه الحلم ، أو على الأقل أن يهدى جارية ليقضي بها وطره . وكان أحد الإخوة يمزح قائلا إنه سيسبي مارجريت تاتشر حين يفتح الله علينا إنجلترا ، وسيرسلها لشراء الفول كل يوم صباحا . والإخوة يذكروننا أنه في دولة العدل تحت قيادة عمر بن عبد العزيز أرسل الخليفة رجلا ينادي بين الناس : هل من أعزب فنزوجه ، فلم يجد في البلاد كلها رجلا واحدا بالغا غير متزوج . ويدلل الإخوة دائما على فساد المجتمعات الحديثة وقصور تفكيرها بأنها تزيد من مصادر الشهوة وتقلل من سبل صرفها . فهي تسمح للفتيات بالتبرج وتعرض الأفلام الإباحية التي تثير الشباب ، ثم تتركهم غير قادرين على توفير عمل أو مسكن لهؤلاء الشباب كي يستطيعوا الزواج وحفظ الأعراض . ومن هنا كان اعتراض الجماعة على تنفيذ حكم الإعدام في ستة أفراد اغتصبوا فتاة من مصر . وكانت حجة اعتراضهم إن النظام العلماني الجاهلي هو الذي اغتصب تلك الفتاة وليس مغتصبوها الستة .

النظرة بريد الزنى :

تتمثل خلاصة ما تعلمناه في هذه الفترة أن الجنس لا يتجاوز إطارين . فهو من ناحية شهوة وضعها الله في الإنسان كي يحفظ نوعه ونسله ويستمر في تعمير الأرض و"خلافة الله فيها" ، وهو من جهة أخرى اختبار لمدى قدرة الإنسان على كبح جماح نفسه وكسر رغباته تقربا من الله . أما الطريقة الوحيدة المباحة لهذه المتعة الدنيوية فهي الوسيلة الشرعية المتمثلة في الزواج . وكل ما خالف هذه الوسيلة فهو زنى محرم يبدأ بالنظرة التي ليست إلا " بريد الزنى " ، و" سهم من سهام إبليس من اتقاها مخافة الله أبدله الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه " .

والوسيلة الشرعية الوحيدة لممارسة الجنس في الزواج تتم هي الأخرى وفق سنة منقولة عن الرسول ، كصلاة ركعتين قبل الدخول في الزوجة ، والتسمية قبل الإيلاج والتكبير ساعة القذف ، كي لا يتلبس الشيطان الطفل الذي قد يتكون في رحم الزوجة . وهناك حكايات عن الذرية الصالحة التي رزق بها أناس اتبعوا هذه التعليمات بدقة .

وهذا التحديد الصارم للممارسة الجنسية ، وتلك الطقسية المحيطة بها ، أعطيا الجنس في الإسلام طابعا حسيا ومحرما في آن واحد . أضف إلى ذلك أن رجم الزاني والعذاب الذي ينتظره في الآخرة ربطا الجنس في عقولنا بالخطيئة والمعصية والرجم والنار .

وفي الجامعة كانت مهمتنا الأولى تتمثل في منع الاختلاط بين الطلبة والطالبات ، فلا يجلسون متجاورين في قاعات الدرس ولا يتحدثون أحاديث مباشرة ، سواء منفردين أو مجتمعين . كانت هذه المهمة في غاية الأهمية بالنسبة للإخوة ، لأنها على حد قولهم تدرأ الخطر الأعظم ، كما أنها الدليل الأوضح على وجودنا أو عدمه . ولهذا لم يكن هناك بديل أو حل وسط مقبول ، بل لا بد من منع الاختلاط بكل الوسائل الممكنة . وقد حاول بعض الطلاب في بداية العام الدراسي الأول أن يجلسوا في المكان الذي خصصناه للفتيات فذهبت إليهم وطلبت منهم أن يغادروا مكانهم وينتقلوا للجلوس في أماكن الطلبة ، فرفضوا ، فقلت لهم بلهجة تهديد :

"افعلوا ما بدا لكم ولكن تحملوا النتائج " ، وتركتهم . وفي اليوم التالي لم يجرؤ أحد منهم على الجلوس في الأماكن المخصصة للفتيات واستمر هذا طوال السنوات الثلاث التي قضيتها في جامعة أسيوط .

كان هؤلاء الطلبة من أصدقائي القدامى ، لكن هذا لم يمنعني من تهديدهم ومن دعوة الإخوة إلى استخدام القوة معهم بلا تردد ، رغم علمي ، أو ربما بسبب علمي ، أن هؤلاء بالذات يشعرون أنهم مركز قوة لأن آباءهم أساتذة في جامعة أسيوط ، وكثيرون منهم عاشوا سنوات في أوروبا ، ويسكنون في مجمع سكني خاص بهم يسمى مساكن الجامعة ،ويتعاملون بحرية في ما يخص علاقات الاختلاط بين الشباب والفتيات .

وبعد الفصل بين الشباب والفتيات في أماكن الجلوس كان عليّ أن أرسي مبدأ عدم السماح بأي حديث مباشر بين كل شاب وفتاة . فصرت أتوجه إلى أي شاب يتحدث مع فتاة وأطلب منه ألا يفعل . ولم يحدث أبدا أن اضطررت إلى اللجوء إلى القوة . لكن الموقف الذي لا أنساه هو أنني رأيت زميلة وزميلا يتحدثان معا فطلبت من الزميل أن ينهي حديثه معها ، فأخبرني أنها أخته التوأم ، فقلت له بمنتهى البرود : ننعم ، ولكن الناس لا تعلم ذلك!

الشذوذ والقداسة :

خارج الجامعة كان الإخوة شديدي القسوة في ما يخص " المخالفات الجنسية " . بلغهم ذات مرة أن شابين مسيحيين يمارسان الجنس مع فتاتين مسلمتين محجبتين يعمل أبوهما في السعود ة. فقتلوا أحد الشابين وقطعوا أذن الآخر وكسروا ظهره . وحكى لي أخ أنهم ذهبوا ذات مرة لتغيير المنكر الذي ترتكبه امرأة تخون زوجها ، فجروا الرجل والمرأة إلى خارج المنزل وضربوهما بالجنازير . وحين قال لهم الطبيب الذي يصاحبهم (كان اصطحاب طبيب ضروريا حين ينوون تغيير المنكر بعنف لا يفضي إلى الموت) خائفا أن يموت الرجل والمرأة بين أيديهم : استروا

عليهم ، إن الله على عباده ستير ، رد عليه الأخ الذي روى لي الواقعة قائلا "ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين".

ورأيت بعيني قبيل انتسابي إلى كلية الطب كيف قامت زمرة من الجماعة بضرب أحد إخوة " واحد وثمانين" (تعبير يطلق على الذين دخلوا السجن في قضية اغتيال السادات عام ١٩٨١م) لأنه شاذ جنسيا . وكانت الشائعات قد تواترت إليهم عن هذا الأخ من دون أن يملكوا عليها دليلا مؤكدا ، حتى حاول هذا الأخ أن يمارس الجنس عنوة مع أخ صغير داخل المسجد ، فهرب الصغير منه وأخبر الإخوة . ولأداء صلاة العصر نفسه طلبت الجماعة من عد كبير من أعضائها الاجتماع في المسجد نفسه . فذهبنا لنجد أخا معروفا يصر على إمامة المصلين ، فيما جمع من الإخوة يمنعونه وفي أيديهم سلاسل وجنازير حديدية ، ويصرون على أن يؤم الصلاة أخ آخر .

في البداية لم أستوعب ما يحدث ، ثم علمت أن الأخ الذي يمنعونه من الإمامة قد عرف عنه أنه مصاب بالشذوذ الجنسي ، وقررت الجماعة إخراجه منها لتطهير صفوفها . وبعد فشل الوسائل الكلامية في إقناعه بالخروج من المسجد ، لجأت الجماعة إلى استخدام العنف لإخراجه : انهال عليه حاملو السلاسل والجنازير ضربا مبرحا أسال الدم من وجهه وجسمه ، على مرأى من جمهرة المصلين في المسجد .

كان المشهد مؤلما للجميع حين رأينا الأخ الذي " كنا نظن به خيرا " يضرب على هذا النحو ويلقى خارج المسجد . ولما دمعت عيناي ، جاء إليّ أخوان وطلبا مني الخروج من المسد ، كي لا أؤثر في باقي الإخوة ففعلت ، وذهبت إلى البيت معتكفا أياما عدة .

لم أستطع التغلب على الصدمة التي أصابتني ، فحتى تلك اللحظة كنت أظن أننا مجتمع ملائكي يشبه الرعيل الأول الذي سماه سيد قطب " جيل قرآني فريد " وجاءت تلك الحادثة لتقلب أفكاري عن مجتمعنا الإسلامي المثالي المصغر . ولما أحسست أنني عاجز عن تفسير الأمر بنفسي ، حملت أسئلتي إلى المسجد ، وقلت

لأحد الإخوة الكبار : لم أستطع استيعاب ما حدث للشيخ ، فقال لي محدثي : بداية لا تقل الشيخ .. اسمه الواد . ثم شرح لي الأخ الكبير أن المجتمع الإسلامي لـــيس مجتمعا من الملائكة . فحتى الصحابة أيام الرسول بينهم من زنى ، ولذلك أنـــزل الله حد الزنا . ولو أن الله يعلم أن المجتمع الإسلامي لن يحوي أفرادا "لوطيين" لما أنزل حد اللواط . أما الفرق بين المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات فيتمثـــل في أن المجتمع الإسلامي يضرب على أيدي المخالفين ويطهر صفوفه منهم ، فلا يسمح للفاحشة أن تشيع بين صفوف المؤمنين ، وهذه هي فضيلة الإسلام العظمى.
هذا قبل أن يختم كلامه بالقول : المهم ألا تأخذك بهؤلاء العصاة شفقة ولا رحمة .
لم تؤد هذه الحادثة إلى نفوري من " الجماعة الإسلامية " ، لأنها كشفت عن وجود من يفعلون الموبقات في صفوفها ، كما تحاول وسائل إعلامنا أن تصور الأمـــور. فهذا من وجهة نظري أمر طبيعي في أي مجتمع إنساني . لكن التـــأثير الحقيقـــي للحادثة تمثل في انهيار فكرة القداسة التي تكتنف الفكر الأصولي وتغشـــى علـــى أبصار معتنقيه وبصيرتهم ، فتسلب منهم الألباب تدريجيا ، وبلا صدمات . فالفكر الأصولي الإسلامي لا يكتفي بتقديس الله ورسوله ، بل إن التقديس لا ينسحب على التاريخ وأحداثه ، وعلى أشخاص هذا التاريخ وأفعالهم ، وذلك بهدف إيهام ملتـــزم الإسلام الرسالي بأن الظروف الراهنة التي يعيشها اليوم رفاقه تشبه تلـــك التـــي أحاطت بالمسلمين الأوائل وبأحداث بدايات الدعوة الإسلامية .
وعلى النقيض مما حدثني به الأخ الكبير ، وضعتني تلك الحادثة في بداية الطريق إلى التسامح ومحاولة تفهم النفس الإنسانية كما هي ، وليس كما يراد لهـــا عنـــوة وهما أن تكون . كأنني بدأت أستوعب نقائصها وضعفها ، ترددها وتقبلها ، كجزء من الحقيقة الإنسانية . ثم رحت أغير طريقتي السابقة في تقويم الأشخاص قدر ما يحكي عن بطولاتهم وتضحياتهم ، ونزعت فكرة القداسة المطلقة عـــن البشـــر ، وتكونت لدي بذرة النظر الإنساني إلى الإنسان ، بلا تنميط ولا أفكار مسبقة.
ومثل كل المقدسات والتابوهات في العالم ، ما أن يسقط حجر من بنائها ، لا يلبث البناء كله أن ينهار سريعا . وبالفعل بدأت الحكايات عـــن الشـــذوذ والمخالفـــات

الجنسية تتردد ــ صدقا أو كذبا ــ في صفوف الجماعة ، وبــدأت أضــيق بهــذه الحكايات من منظور أخلاقي ومن منظور حبي الشديد والصادق لهــؤلاء القــوم المخلصين الذين سيرفعون راية الإسلام . وكم تألمت حين سمعت أحــد الإخــوة الكبار يقول ساخرا إننا نطمع في أن يمكــن الله لنــا فــي هــذه الأرض ، بينمــا الأمراض تنتشر فينا ، وقليل علينا ما يحدث لنا من بلاء ، فهذا من رحمة الله بنا. وبعد عامين من طرده من المسجد وجد الأخ الشاذ مقتولا وملقى في الحقول ، ولم يعرف أحد من الجاني .

وفي نهاية عامي الجامعي الأول أشيع أن صديقي القديم " صاحب الجنزيــر " قــد قبض عليه في " قضية آداب " لأنه شاذ جنسيا . كنا متأكدين أن هذه وسيلة حقيرة من الشرطة لتشويه صورة أعضاء الجماعة ، حتى جاء بعــض جيــران الشــاب ليخبروا أحد الإخوة الكبار أنه عرض عليهم نفسه لممارسة اللواط . وقالوا إنهــم جاءوا إلى الإخوة كي يوقفوا هذا الأمر المخزي ، خاصة أن " صاحب الجنزيــر" يفعل ذلك أحيانا في النادي أسفل المسجد .

استدعى الأخ الكبير صاحبنا إلى بيته وطلب مني أن أتوارى في حجرة داخلية كي أكون شاهدا على ما يقول . مرت ساعة وأنا أستمع إلى تفاصيل مثيــرة للغثيــان قلبت ثقتي في ما أعتقد رأسا على عقب . اعترف صاحبنا بمغامراته ، وكيف أنه كان أحيانا لا يصعد إلى الصلاة في المسجد كي يظل في حجرة كرة الطاولة فــي النادي حيث يمارس الشذوذ مع فتيان يحضرهم إلى هناك ، وســأله مســتجوبه إن كان أحد الإخوة مارس معه الشذوذ ، فقال إنه كان يحس أن البعض يريد ذلك لكن بدون طلب صريح ، فكان يبتعد لأنه لا يريد أن يكون شيطانا يغوي الإخوة . فقال له الأخ " إنك تحس بذلك لأنك وسخ ، فاكر كل الناس عايزين ينيكوك ؟!" . وبعد انتهاء الاستجواب رحل " صاحب الجنزير " قال لي الأخ الكبير " الحمــد لله أنــك كنت موجودا لأن الشيطان أوشك على غوايتي " . وربما قال هذا لتحــذيري مــن الانفراد بــ " صاحب الجنزير " !

لكنني انفردت به ، ولا أدري لماذا تعمدت إهانته أكثر من مرة . بكلام مثل : هل كانوا يقولون لك " وطي يا بت " ؟ أو " بتروح بلبسك العادي ولا بتلبس قمصان نوم ؟ " . وكان يرد بلا اكتراث ، وأحيانا بتأثر مصطنع ، حتى مللت منه موقنا أنه وأمثاله من الشاذين بلا إحساس ، وأنهم يستحقون الجزاء الذي فرضه الله عليهم بالقتل رميا من عل . لكنه بدأ يحكي لي عن مشعره ، وكيف كان يريد أن ينتحر حزنا وكمدا لأنه شاذ وأنه حاول صرف اهتمامه عن رغبته الشاذة بممارسة الرياضة والصيام وما إلى ذلك ، بلا جدوى . لذا رحت أشفق عليه ، موقنا أنه لا يستطيع أن يقلع عن تلك العادة المخلوقة فيه . وقد برر لي ذلك بقضائه سني حياته الأولى في إحدى دول الخليج ، حيث مارس رجل كبير اللواط معه . ولا أدري هل كان صادقا أم كاذبا في ما يقول ، لكنني تأثرت كثيرا بإحساسه العميق بالذنب ، ذاك الذي أضفى عليه شعورا بالذل والمهانة .

والمهم في قصة " صاحب الجنزير " هو موقف الإخوة منه . لقد عرضوه على طبيب نفسي ، مما يعني أنهم " علمنوا " التعامل معه ، في حين أن دين " الجماعة الإسلامية " لا ينظر إلى اللواط ولا يتعامل معه كظاهرة قابلة للعلاج ، بل ذنبا ينال مرتكبه القصاص . فهل يعني هذا أن تلك الجماعة الأصولية مستعدة لتجاوز أحكام إسلامها الراسخة منذ قرون ، أم أن ما فعله الإخوة كان مجرد محاولة تعتيم على " الفضيحة " ؟

والأمر الآخر الذي يستوقف في تلك الحادثة هو قوة تأصل فكرة الجماعة في نفوس أفرادها ، حتى الذين خرجوا على حكم واضح من أحكام الإسلام نفسه . وهو خروج جزاؤه اللعن ، أي الطرد من رحمة الله . فالجماعة ، إصرارا منها على إذلال " صاحب الجنزير " وعقابه وخوفا من تكاسله ، أوجبت عليه أن يمر عليّ يوميا لكي أعطيه حبة الدواء الذي وصفه له الطبيب . وكانت تلك المهمة هي الأصعب علي ، حتى تمنيت لو أنني قادر على تحريضه على عدم المجيء وليكن ما يكون . لكنه تقبل هذا الحكم راضيا ، لم يتمرد ولم يعترض ولم يقل دعوني وشأني ما دمتم عرفتم أنني لست جديرا بالالتزام في صفوف جماعتكم . كأن

خروج صاحبنا على أحكام الإسلام لم يؤد إلى خروج قوة انتمائه إلى الجماعة من نفسه . فبعد سجنه والإفراج عنه راح الإخوة يتجنبون السلام عليه . وظل رغم ذلك يعتبر نفسه ملتزما . وعام ١٩٩٢م اعتقل مجددا ولا يزال حتى كتابة هذه السطور معتقلا بلا محاكمة .

الحب الطهور :

رغم أنني كنت أصوم خمسة أيام أسبوعيا في تلك الفترة ، لكنني كنت أستمرئ المعصية فيما يخص الرغبة الجنسية . والمعصية هنا تعني الوقوف ساعات طوال خلف النافذة لمراقبة بنات الجيران ، حتى صرت خبيرا بعاداتهم البيتية اليومية لطول ما راقبتهن : أعلم أوقات خروجهن ودخولهن وتنقلهن بين الغرف ، وأعرف مقاعدهن المفضلة ، وألوان ملابسهن الداخلية . ثم إني حددت أفضل المواعيد لمراقبة مختلف البيوت في الاتجاهات كلها . والمعصية تعني أيضا تحين فرصة عدم وجود أحد في منزلنا لمشاهدة التلفزيون ، أو البحث عن الصفحات الساخنة في الروايات التي كانت أسرتي تملك أعدادا كبيرة منها . أردت أن أهرب من الرغبة الجنسية وأقضي عليها ، فصارت هاجسي الدائم ، حتى أنني رحت أشعر بالإثارة حين أستمع إلى الآيات القرآنية التي تحكي قصة النبي يوسف مع امرأة العزيز .

وهكذا اعتقدت أنني أسوأ إنسان على وجه الأرض ، وأعزو كل ما يحدث لي من مشاكل إلى معاصي ، وإليها أعزو أيضا عدم قدرتي على استذكار دروسي .

بعد فترة وجدتني مشدودا إلى فتاة جميلة ترتدي حجابا فضفاضا ، فرحت أتعمد الجلوس أقرب ما يمكن منها ، كي أستطيع النظر إليها من حين إلى آخر ، وتكون هناك فرصة لكي تنظر هي إلي . ولم أعد قادرا على التفكير إلا فيها ، ولفت نظرها إلي . وبعد مشادة حدثت بيني وبين أحد أعضاء جماعة الإخوان وهي مشادات كانت تؤدي عادة إلى نفور الطلاب من الجماعتين . اشتريت لها كتيبا هدية وكتبت لها رسالة تحمل وجهة نظري في الخلاف ، ووضعت الكتيب

والرسالة أمامها حيث تجلس . وفي اليوم التالي فوجئت بها تتجه نحـــوي ودون أن تكلمني تضع أمامي رسالة تحوي ردها ، وتمضي فبدأت أكتب شعرا فيها وأقـــرأه على أصدقائي المقربين :

" ومن عجب أني
والشوق إلى رؤياها يكاد يقتلني
تراني إذا اقبلت أخفضت عيني .
ويقولون ذاك من ديني
وهو حق
وكذاك حق أني
ما واجهت الشمس قبلا
إلا أخفضت عيني " .

ثم استولت الفتاة على تفكيري تماما ، فصرت لا أقدر على المذاكرة أو التركيز ، وحكيت لصديق ما بي فأخبرني أني لست الوحيد الذي أحبها ، وأن زميلا لنا سار خلفها من الجامعة إلى مسكن الطالبات ، وأن آخر راهن الطـــلاب أنـــه يســـتطيع الحديث إليها وفعل . عدت إلى البيت وكتبت لها رسالة عن معنى أن تكون الفتـــاة ملتزمة بالإسلام في مظهرها وجوهرها ، وعن الذئاب التي تحيط بالمرأة وتنتظـــر الفرصة لكي تنهشها .

كنت حين لا أراها لفترة أفكر في الاقتران بفتيات أخريات ، على اعتبار أنهـــا لا تشعر بي ، ما دام تفوقها الدراسي وامتلاك والدها مستشفى خاصا بـــه يجعـــلان مستقبلها مضمونا ، حسب طريقة البروجوازية المصرية في التفكير فـــي فـــرص نجاح أبنائها . ولما بلغها أني أحبها عن طريق أخت صديق تسكن معها في مسكن الطالبات . تركت الموضوع معلقا من دون الإشارة إليه حتى خرجت من الســـجن بعد سنتين ، فعلمت أنها قالت إنني صغير السن ، وإن لي ظروفا خاصة تمنـــع أن يقوم ارتباط بيننا .

انتهت قصة الحب التي عشتها أثناء التزامي . وفي السنوات الثلاث من عمر تلك القصة ، لم أتخيل أبدا أنني أقبل الفتاة التي أحبها ، أو أضمها أو أمارس الجنس معها . فمن أحبها يتوجب علي ألا أحط من قدرها حتى في تفكيري بمثل هذه الأفعال . ثلاث سنوات لم أنظر أبدا في أثنائها إلى جسد من أحب إذا سارت أمامي ، رغم أني كنت أنظر إلى أجساد الأخريات . أحيانا كنت أقول لنفسي إنني أحبها لأنها تعينني على طاعة الله ، ما دمت أفكر فيها وحدها من دون سواها . لكنني حين أفقد الأمل في وصلها ، كنت أعود إلى عاداتي القديمة في التلصص على بنات الجيران .

وفي السجن كنت أرى وجهها أمامي طوال الوقت . ورغم يقيني أن السجن هو نهاية أي أمل في هذا الحب ، فإن حبي اليائس كان أكثر ما يخفف عني آلام سجني.

وفي فترة السجن لم يكن للجنس أي حضور في رأسي ، إلا الخوف من التعرض لاعتداء جنسي أثناء التحقيق معي . وشعرت مرة بالخوف حين لمحت زميل الزنزانة الذي أمضى ستة شهور حبسا يمارس العادة السرية تحت الغطاء. وعن طريق بعض الجيران كنت قد علمت قبل دخولي السجن أن أول من دعاني إلى التزام طريق " الجماعة الإسلامية " كان شاذا جنسيا ، فتساءلت في نفسي إن كان يمارس الشذوذ في السجن أيضا !

وبعد سنة من الخروج من السجن بدأت رحلة التفكير في اتجاه آخر . وظللت سنتين مبتعدا عن التفكير بجدية في أي شيء . ثم اعتقدت أني قد تجاوزت الأمر برمته . لكنني اكتشفت أنني أنفر من كل فتاة أمارس معها الجنس لأيام عدة بعد الممارسة الأولى .

لقد تربيت على أن الشيطان ثالث كل رجل وامرأة ، وأن الضيف ينبغي ألا يستحم في بيت المضيف حتى لا يظن الأخير أن ضيفه نام مع زوجته!

الفصل الثالث
السجن

حين بدأ مسلسل العنف والاغتيالات المتبادلة بين النظام المصـــري " والجماعـــة الإسلامية" ، برز إلى الصف الأمامي أشخاص كنا نعرفهم ولا نعرفهم . كانوا إما إخوة أشيع عنهم منذ مدة أنهم ابتعدوا عن الجماعة ، وإما أشخاصا حليقي اللحـــى كنا نحسب أنهم مجرد متعاطفين يحضرون دروس الجماعة من وقت إلى آخر.
وكلما قتل عضو من الجماعة غيلة أو في مواجهة مع النظام أو بعد انكشاف خلية ، كانت الحكايات تنتشر حول تقواه وورعه اللذين أديا إلى اصطفائه ليكـــون أحـــد أعضاء التنظيم المسلح . وإلى جانب التقوى والورع كان الإخوة يختارون أعضاء التنظيم المسلح ممن يتميزون في طاعة أوامر الجماعة. ومن هؤلاء أخ قيـــل أنـــه اختير بعد أن لبى على الفور طلبا للإخوة بتوزيع منشورات بعد دقائق من مطاردة قوات الأمن له للسبب نفسه ، إذ كان توزيع المنشورات في ذلك التوقيت ضروريا لتضليل قوات الأمن وإشغالها بمطاردة الإخوة الذين يفعلون ذلك . وكانت استجابة الأخ للطلب هذا ، دون أن يسأل عن السبب ، دليلا على أهليتـــه للعمـــل الســـري الخطر.

بعد الاغتيال الأول :

استهلت السلطة المصرية مسلسل الاغتيالات باغتيال علاء محي الدين المتحـــدث الرسمي باسم الجماعة . ولقد كان اختيار محي الدين يحمل سؤالا وجوابـــا : هـــل المشكلة بين النظام المصري و" الجماعة الإسلامية " تكمن في ممارسة الجماعـــة العنف أو في إيمانها به ؟ والجواب من وجهة نظر الجماعة : لا ، بـــل المشـــكلة تكمن في عدم سماح النظام بأي معارضة جدية ، سواء كانت عنيفـــة أو ســـلمية . فلو أن المشكلة في ممارسة العنف لما استهدف الاغتيال ، بداية ، عـــلاء محـــي الدين الذي كانت مهمته تقتصر على التحدث باسم الجماعة والتعبير عن رأيها في

الصحف . وشخص كهذا لابد أن يكون الأبعد تنظيميا عن المشاركة والفعل في العمل السري المسلح الذي تخطط له الجماعة .

كان اغتيال علاء محي الدين يحمل رسالة واضحة من الحكومة المصرية إلى الجماعة تفيد بأنها لن تقبلهم على أي حال . كأنما هذه العملية الأولى كانت نذير المواجهة الحتمية بين جماعة تؤمن بالعنف وسيلة وحيدة لتغيير النظام الذي لا يقيم شرع الله ، ودولة لا تقبل بالمعارضة السلمية ، ناهيك بالعنيفة .

ويوم سمعنا خبر اغتيال علاء محي الدين رأيت طلعت ياسين ، أحد قياديي الجماعة يبكي على سلم المسجد . ولما اقتربنا منه نهدئه قال " دم علاء لن يذهب هدرا " ، ثم اختفى طلعت ياسين ليقود العمل المسلح حتى مقتله داخل شقته في القاهرة على يد قوات الأمن عام ١٩٩٨م .

كنت لا أزال في عامي الجامعي الأول لما بدأت الأمور تنزلق إلى نقطة اللاعودة بين الجماعة والسلطة المصرية . فما كان مسموحا من قبل ، كالخطابة في المساجد وإقامة صلاة الجمعة ولقاء الاثنين ، لم يعد مسموحا الآن . وراحت حملات الاعتقال تشمل أي ملتح يسير في الشارع . وسرعان ما أمسى قادة الجماعة كلهم في السجون ، فأوكلت مهمات القيادة إلى رجال الصف الثاني الذين أظهر بعضهم قدرات لافتة للنظر. فظهر خطباء لم يكن يعرفهم أحد، وقادة حركيون يجهلهم أعضاء الجماعة التي نجحت في الحفاظ على إقامة بعض أنشطتها ، رغم التضييق الأمني . فأصرت مثلا ، على إقامة لقاء الاثنين الأسبوعي رغم الحصار الذي يضربه رجال الأمن علينا . ذلك أننا رحنا نتنقل بين مساجد المدينة على نحو أرهق قوات الأمن وأفقدها السيطرة على زمام المبادرة . وبعد أشهر عدة انفرجت الأمور قليلا ، فأفرج عن بعض الإخوة ، واعتبرت الجماعة ذلك نصرا مؤزرا ودليلا على أن العمل الإسلامي باق مهما ضاقت الظروف.

كان ذلك الانفراج هدنة مؤقتة بين الجماعة والحكم سمح فيها للجماعة بالحد الأدنى من مطالبها ، كأن يكون لها مسجدها الخاص ، وأن تقيم فيه خطبة الجمعة ولقاء

الاثنين الأسبوعي . لكن قادتها ظلوا في السجون . وهي قد تكون ارتضت بالحد الأدنى من نشاطها العلني ، لأنها اتخذت خيار العمل المسلح . وربما كان هذا الذي ارتضت به أسوأ اختيار أقدمت عليه . فالقطاع الأكبر في تنظيم الجماعة لم يجد تفسيرا مقنعا لنهجها في ذلك الوقت ، لأن هذا القطاع لم يكن معدا للمشاركة في العمل المسلح الذي يتهيأ له التنظيم . لذا بدأت تتخلخل بنية الجماعة داخليا وراحت تفقد قطاعا كبيرا من أبنائها .

بلورة الإسلام المسحورة :

في أغسطس / آب عام ١٩٩٠م حدث الغزو العراقي للكويت .
فبدأ أن الجماعة عاجزة عن اتخاذ موقف من هذا الحدث ، فيما يتزايد عدد نزلاء السجون من قادتها ، من أن تدري ماذا تفعل : تصريحاتها متضاربة ، وحججها واهية ، والإدراك السياسي لقادتها يكاد يكون معدوما ، لدرجة أنها أقامت مهرجان تأييد للشاعر المصري اليساري محمد عفيفي مطر ، بعدما اعتقله رجال الأمن ، ظنا من الجماعة أنه الشاعر العراقي ذو الصبغة الإسلامية أحمد مطر . وقرئت في المهرجان نفسه أشعار الشاعر العراقي وهاجم الخطباء النظام المصري الذي يحارب الإسلام .
وبدا واضحا آنذاك أن الجماعة تعيش عالما متخيلا ، وتتخذ مواقف من القضايا الراهنة ، وكأنها من قضايا الألفية الأولى . فبلورة الإسلام المسحورة التي انكسرت بعد وفاة النبي ، ما زالت تتشظى ، ويلتقط كل حزب قطعة منها وينظر فيها ليرى رغباته ، ويبوح فيها باسم الإسلام .
قبل أربعة عشر قرنا قال علي بن أبي طالب " لا تجادلوهم بالقرآن فإنه حمال أوجه " ، فهل اختلف الأمر الآن ، وهل يختلف الأمر غدا ؟
بدأت الضربة الجوية ضد العراق ، وظلت الأوضاع إلى حد كبير هادئة ، لكن مع بدء الحرب البرية اشتعلت المظاهرات في مصر كلها ، فأدرج اسمي في قوائم المطلوبين ، وسوف تمضي ستة أشهر قبل أن يتم القبض علي في ٧ تشرين أول

١٩٩١م . في هذه الأشهر الستة كانت الجماعة تترنح كالملاكم المنهك . لم يكن السبب هو الضربات الأمنية فقط ، بل افتقارها إلى قياداتها السابقة صاحبة القدرة على الإبداع والمناورة . وهكذا تصدر العمل المسلح نشاط الجماعة ، فانحسر الماء عن شاطئ الدعوة ، وجفت الألسنة ونضب المداد .

العيش خارج الحياة :

حين اعتقلت كنت واقفا على الحدود لا أدري هل أمضي قدما في انتمائي إلى العالم الذي لم أعرف غيره طوال خمس سنوات شكلت نسيج حياتي منذ كنت في الرابعة عشرة ، أم أتوجه ، كفاقدي الذاكرة ، إلى عالم جديد لا أعلم كثيرا عن أبجديته ، لكن اعتقالي سرعان ما دفعني دفعا إلى خيار غير مألوف لم أكن أتوقعه.

لا أنسى أن أبي كان معارضا لاتجاهاتي ، ووصلت الخلافات بيننا إلى حد تركي البيت أكثر من مرة ، قد شد على يدي وأنا في طريقي إلى سيارة السجن قائلا "ولا يهمك ، شد حيلك في السجن" .

قبل أن أدخل السجن لم أكن أعي معنى كلمة " سجن " . كانت الصورة الراسخة في ذهني مستقاة من حكايات الذين مروا في التجربة . غير أن السجن في هذه الحكايات يشبه ذكرى شجار حدث في المراهقة بسبب معاكسة بنت الجيران . أما السجن الحقيقي فأشبه بذبابة دخلت أذنك ، أو بصداع مزمن يقتلك ولا يتركك تعيش حياة طبيعية .

السجن قفص يحبس فيه إنسان يمتلك القوة كلها إنسانا بلا أي حماية ، فيحرمه من رؤية الشمس والمشي في الهواء أو الذهاب إلى الحمام أو التدخين أو رؤية أصحابه . كما يحرمه من ارتداء الملابس التي يختارها ، ومن أن يتناول المآكل التي يرغب أن يأكلها . والسجن هو أخيرا حرمان كامل من امتلاك الوقت والزمن والأمكنة ، والعيش خارج الحياة .

قضيت الأيام العشرة الأولى في معسكرات فرق أمن أسيوط ــ وهي معتقلات يجيز القانون حبس المدنيين فيها ــ في خلاء مقفر بعيدا عن العمران ، كي تستطيع مباحث أمن الدولة أن تستجوبهم على طريقتها الخاصة . هناك كنت أنظر إلى النيل المجاور وأفكر بجدية أن ألقي نفسي في مائه هربا مما أنا فيه من ضعف وقهر وهوان . وأنظر إلى النخيل فأبكي متذكرا أبي حين كان يشتري لي البلح الذي أحبه .. أبكي وأتذكر كل صغيرة وكبيرة من حياتي الماضية ، مفتكرا في أحداثها التي كانت تشغلني ، تغضبني أو تسرني ، فأتعجب كيف كنت أهتم بهذه الأمور التافهة البسيطة .

وزاد شعوري بالقهر حين جاء إلى محام من الشؤون القانونية في جامعة أسيوط ، جامعتي ، لإجراء تحقيق معي حول ما نسب إلي من تهم بإثارة الطلاب داخل حرم الجامعة والتحريض على العنف وكراهية النظام . وأظنها المرة الوحيدة في التاريخ التي تجري فيها الجماعة تحقيقا مع أحد طلابها وهو حافي القدمين جاث على ركبتيه ويداه متشابكتان خلف قفاه .

كنت نزيلا مع معتقل آخر في زنزانة مساحتها أربعة أمتار مربعة وارتفاعها نحو خمسة أمتار . في جدارها شباك صغير لا نستطيع أن ندركه حتى لو وقف أحدنا فوق كتف الآخر . كنا نأكل من طعام الجنود .. في الصباح فول مدمس كبير الحجم ، وفي الظهيرة أرز ولحم وخضر . تعجبت من هذا الطعام الوفير ، فقال لي زميلي : لا تتعجب ، يعلفونك في النهار لكي تتحمل ما يفعلونه بك في الليل . على كل حال ، لم تكن لي شهية إلى الطعام ، وأفتى زميلي في الزنزانة بأن اللحوم وكل ما يطبخ من مرقها حرام لأنها مستوردة ؛ فرحنا نعتمد على الفول المدمس فقط .

ليل الأدعية والصراخ :

كان ليل الزنزانة يبدأ قبل غروب الشمس بساعتين . ليل حالك لا يشبهه ليل ، ولا يقطعه سوى صوت صرير الحديد على الحديد حين تفتح مغاليق الزنازين

لاستدعاء معتقلين جدد للتحقيق . أما النهار فكان زميلي يقضيه كلـــه فـــي تـــلاوة القرآن. وكان هذا دليلا لي على أنه أكثر مني تقوى وورعا . كـــم كنـــت أشـــعر بالضيق لأنني أحتاج إلى إنسان أسري عنه ويسري عني ونتبادل الحديث معا . لم أستطع أن أصرح له بأن يقتلني غما حين يخلي بيني وبين أفكاري التـــي أقلبهـــا وحدي طوال النهار . وحين يلفنا الظلام ونبدأ بالحديث كنت أفتقد الحس الإنســـاني الذي يبعثه الحديث بين اثنين يرى كل منهما تعبيرات وجـــه الآخـــر ، ونظـــرات عينية. لم يكن حديثنا يتجاوز نصف الساعة ، يطلب مني بعدها محادثي أن نخلـــد إلى الدعاء في عتمة الليل ، لأنه دعاء لا يرد .

وفي عتمة الليل تلك كنا نعيش لحظات الرعب الحقيقي نترقب دورنا في التحقيـــق على وقع أصوات مغاليق الزنازين التي يتعمدون فتحها وإقفالها طـــوال الليـــل ، فتختلط قرقعتها بأصوات صراخ المعتقلين القادمة من قريب وبعيد . وحين تخفـــت هذه الأصوات كنا نقضي بقية الليل في انتظار عودة من أخذوه إلى التحقيق لسؤاله عما حدث له ، وعن المعلومات التي أدلى بها . ذهبت إلى التحقيق ثلاث مـــرات كانت أولاها أكثر رعبا ، حيث انتظرت دوري بالقرب من غرفة التحقيق حـــوالي ساعتين ، عيني معصوبتين وأستمع إلى صراخ من سبقوني مستشفا منـــه أنهـــم يعذبون بالكهرباء . فالذي يخضع لهذا النوع من التعذيب يصرخ صرخة قصـــيرة تتبعها ، بعد هنيهة من السكوت ، صرخة طويلة مرتعشة . وبعد ذلك يعلو صوت الأخ قائلا " خلاص يا بيه حقول كل حاجة " لكنه إذ يرفض أن يتحدث ، أو يقـــول معلومة غير المطلوبة ، فإن صراخ التعذيب بالكهرباء سرعان مـــا يعلـــو مـــرة أخرى.

وحين دخلت إلى غرفة التحقيق مقيد اليدين ، قال الضابط للجنود : فكوا يديه "أنـــا عارف إنه هيتكلم على طول بعد ما سمع اللي قبله " ، ثم وجه إلي كلامـــه قـــائلا "اللي قبلك عمل فيها مش عاوز يتكلم ، فخليته يتكلم بطريقتي ، وأخذت منه ســـت صفحات ، فأحسن لك اتكلم على طول " . ولما أجبته " طبعا أي حاجـــة عارفهـــا هقولها" ، بدأ يسألني الأسئلة التقليدية عن أحوالي الشخصية وعما إذا كنت اعتقلت

من قبل ، ثم سألني عن قيادات الجماعة في القطاعات المختلفة فقلت له الأسماء التي كنا متفقين عليها مع الإخوة وكلها أسماء سجناء أو معروفين ولا ضرر من ذكرهم في التحقيق . لم يتهمني بالكذب ، فالإخوة الذين سبقوني ذكروا الأسماء نفسها . غير أن المحقق خالفني القول في الاسم الوحيد الذي كنت متأكدا من صحته ، وهو اسم ، أحمد عبده سليم ، أمير " الجماعة الإسلامية " في أسيوط ، وقال المحقق إن معلوماتي قديمة وإن الإخوة غيروا أمير الجماعة في أسيوط واختاروا الشيخ مرتضى بدلا من سليم .

مر التحقيق بسلام كعادة المعتقلين للمرة الأولى ما لم يكن اعتقالهم بسبب اكتشاف تنظيم أو ما إلى ذلك . وفي الزنزانة تبادلت وزميلي حصاد الاستجواب ، فقال لي إنه فوجئ بأن المحقق يعرف معلومات عن " يوم الرباط " . فلما أبديت دهشتي منكرا معرفتي بـ " يوم الرباط " شرح لي أنه يوم يجتمع فيه بعض الإخوة المختارين بعناية ليصلوا قيام الليل ويقرأوا القرآن حتى صلاة الفجر. وأنهم يفعلون ذلك لكي يربوا أنفسهم على الصبر والجلد استعدادا للجهاد في سبيل الله . أما أنا فقد أخبرته عن مسألة تغيير أمير الجماعة في أسيوط . وقال لي زميلي إنه نزع العصابة عن عينيه حين دخل إلى غرفة التحقيق ورأى الضابط الذي كغيره من أمثاله يرعبهم أن نرى وجوههم ، لأنهم يثقون تماما أننا سننتقم منهم يوما .

ولما أخذوني إلى التحقيق مرة ثانية وظللت في السيارة منتظرا دوري لمدة ثلاث ساعات ، وأرهقني الصراخ ، نزعت العصابة عن عيني ونظرت عبر نافذة السيارة الحديدية ، فرأيت أخا مجردا من ملابسه والماء يقطر على جسمه كله ، فأدركت أنه خرج لتوه من " حفلة الكهرباء " وتعذيب بالماء البارد .

أما التحقيق الثالث فكان في الليلة التي سبقت ترحيلنا إلى سجن ليمان طرة . وفي هذه المرة حققوا معي خطأ ظنا منهم أنني أنتمي إلى جماعة " الإخوان المسلمين". لكن الأمر انقضى بأن ضربت الحزام ، قبل نقلنا .

كانت تلك الليلة أجمل لياليّ في السجن حيث نقلونا جميعا ــ حوالي اثني عشر معتقلا ــ إلى زنزانة مضاءة بمصابيح كهربائية . لقد رأيت تلك الليلة النور بعد

الظلمة وشعرت بالأنس بعد وحشة ، وضحكنا كثيرا مما حدث في غرف التحقيق ، وعلى زملائنا الذين لم يستطيعوا القعود أو النوم أو الوقوف ، لأن أقدامهم ومؤخراتهم متورمة من الضرب .

ومن الذكريات التي لا أنساها في تلك الليلة أنني حين شرعت في النوم قمت مفزوعا لأن صرصورا كان يمشي على حاجز حديدي فاقترب مني جدا حتى كادت قرون استشعاره تلامس وجهي . ولما رأى زميلي فزعي ضحك وقال لي : في زنزانتنا السابقة كانت هناك صراصير مثل هذا وأكثر . والفارق الوحيد أننا لم نكن نراها في الظلام . أغمض عينيك وتخيل أنك في الزنزانة المظلمة .

دائما يجسد لي هذا المشهد حال العرب : البعض في زنازين مظلمة ، والبعض في زنازين مضاءة .

ليمان طرة :

نقلت إلى القاهرة في سيارة صغيرة الحجم . كنا سبعة مقيد واحدنا إلى الآخر بكلتي يديه . واستغرقت الرحلة إلى ليمان طرة اثنتي عشر ساعة كاملة ، ضاعف من عنائها أننا كنا صائمين ورفض الضباط تقديم أي طعام أو ماء لنا كي نفطر . وصلنا إلى الليمان في نحو العاشرة مساء ، فبدلت ملابس السجن بملابسي وسلمت عشرين جنيها كانت معي إلى الأمانات . وعزمت على تجنب النزول في زنزانة واحدة مع زميل زنزانة أسيوط التقي الورع .

اقتادني حراس السجن إلى عنبر الزنازين الانفرادية (بنيت ليتكون انفرادية لكن كثافة السجناء اضطرت الحكومة إلى وضع أربعة سجناء أو خمسة في الزنزانة الواحدة) . اجتزت ممرا طويلا تتراص الزنازين على جانبه الأيمن كالمقابر ، وعلى الجانب الأيسر جدار عال مبني حديثا لعزل فناء السجن عن أنظار حبيسي الزنازين . سرت في ظلمة الممر بينما ينبعث من كل زنزانة صوت يطل رأس صاحبه من خلف القضبان ، فاختلطت في مسمعي الأصوات كلها : " من فين يا شيخ ؟ اسمك إيه يا شيخ ؟ اتفضل عندنا يا شيخ ؟ " .

دخلت إلى زنزانة فيها أربعة سجناء : اثنان من القاهرة واثنان من الإسكندرية . ولا أدري كيف استوعبتنا تلك الزنزانة التي لا تتعدى مساحتها أربعة أمتار مربعة ، وثلث هذه المساحة تشغله دورة المياه . لاحظت امتعاض اثنين منهما حين دخولي ، لكنني عذرتهما . وبعد أن تعرفت إلى زملائي الجدد ، أتوا لي بكل ما عندهم من بقايا الطعام . أكلت ونمت ، ثم صحوت من نومي مفزوعا على صراخ أحد الإخوة ، وحين رأى زملائي علامة الاستفهام المرسومة على وجهة قالوا لي " ولا يهمك بكرة تتعود ، من يوم جه من لاظوغلي وهو كدة " [*]. وفي الصباح استيقظت على صوت توزيع " الجراية " ، أي الطعام اليومي الوحيد في السجن ، ويتكون من كوب فول وأربعة أرغفة (خمسة أيام أسبوعيا) ، وأرز وعدس أصفر (مرتين أسبوعيا) . وكنت سمعت كثيرا عن فول السجن الملئ بالسوس ، لكن الواقع كان أغرب من الحكايات . وكتبت إلى أمي خطابا أقول لها فيه " زمان كنت فاكر إن السوس بينخر الفول ويعيش جواه ، هنا اكتشفت أن السوس بيبلع الفول جواه " .

كان زملائي الأربعة شخصيات متباينة .. لا أذكر اسمي القاهريين لكن أحدهما ــ وهو الذي دعاني إلى الزنزانة ــ كان شيخ عرب ، كريما وشهما ، لكنه لا يجيد قراءة القرآن ولا التحدث في أي من العلوم الإسلامية التي يتطرق الحديث إليها . لم يستمر معنا سوى يومين ثم غادر الزنزانة . والقاهري الآخر كان شابا في العشرين من عمره ، نشأ يتيم الأم ويذكر بالخير المرأة التي تزوجها والده ، ويسميها " أمي " . وكانت زوجة أبيه تزوره بين الحين والآخر ، وغالبا ما تعود دون أن تتمكن من رؤيته فترسل له الطعام إلى الزنزانة . وفي المرة الوحيدة التي زارته أثناء وجودي معه لاحظت أنه تأثر بشدة حين أتوا له بالطعام وقد فسر ذلك بعلمه برقة الحال ، وبأنه يكلفهم ما لا يطيقون . وقد اعتقل هذا الفتى لأنه أعطى بطاقته الشخصية لأخ كان هاربا منذ عشر سنوات ، كي يقوم الهارب بتزويرها لاستخراج جواز سفره بيوم واحد حين جاء لتوديع حماته . وقد حكى لي زميل

---

[*] (لاظوغلي هي التسمية الشائعة لمقر وزارة الداخلية في مصر ، وللمقر الرئيسي لمباحث أمن الدولة) .

آخر في الزنزانة أن هذا الأخ جاء من " لاظوغلي" في حالة مزرية بعد أن احتجزوه خمسة عشر يوما رافضين السماح له باستخدام دورة المياه فكان يتبول ويتبرز على نفسه .

أما الإسكندرانيان ، فاسم أحدهما أحمد ويعمل حرفيا ، والآخر أسامة وهو حاصل على الشهادة المتوسطة . والأخير كان أنانيا يحب الاستئثار بالأشياء والطعام لنفسه. ويذكر إخوانه في غيبتهم بما يكرهون . لكن أحمد كان بسيطا وتلقائيا . حين رأيته في البداية لم أطمئن لنظرته الممتعضة بمجرد دخولي إلى الزنزانة . وبعد أربعة أيام صرنا وحدنا في الزنزانة ، وحكى لي عن استجوابه في أمن الدولة.

كان أحمد أميا لا يقرأ ولا يكتب ، لكنه كان يملك حسا إنسانيا رقيقا وسليما . حين غسلت ملابسي الداخلية سال الدم من أصابعي فأقسم ألا أغسلها مرة ثانية ، وأن يقوم هو بغسلها لي . كان يراني أبكي وأنا أكتب خطابات إلى أهلي ، فيتظاهر بأنه نائم كي لا أشعر بالحرج . حين جاءتني كتبي الدراسية كان يتعمد الصمت أطول فترة ممكنة كي أتمكن من استذكار دروسي ، رغم أن الكلام كان وسيلته الوحيدة لقتل الوقت .

عيب الحنين والضعف :

بدأ الصداع يتمكن مني بعد خمسة أيام من جودي في ليمان طرة . هذا الصداع بالطبع لا يعدو أن يكون عرضا من أعراض الاكتئاب . كان الطبيب يمر علينا فنرتقي " البطانية " التي ربطنا طرفيها في قضيبي شباك الزنزانة الأبعدين ، ونبوح له من وراء القضبان بأوجاعنا الجسدية . أخبرته أنني أعاني صداعا شديدا فأجابني (Psychic) أي عارض نفسي . ظللت فترة واقفا أنصت إلى ردود هذا الطبيب على شكاوي الآخرين فلم أسمع سوى الكلمة الإنجليزية نفسها التي يستخدمها الطبيب لثقته أن الآخرين لا يفهمون معناها .

زادت حالتي سوءا وصار الإخوة يسخرون من خطاباتي الكثيرة التي أكتبها لأهلي. وحين كنت أطلب من الأخ المسؤول عن مثل هذه الأمور أن أرسل خطابا كان يقول لي مستهزئا " لما ييجي البوسطجي" . وأرسل لي أحد قيادات الجماعة خطابا يقول فيه : إذا كنت تحرص على الدنيا وتظن أنك تستطيع أن تذاكر في السجن ثم تنجح وتحصل على تقدير فأنت واهم .

ثم أخذ الإخوة يتجنبونني ولا يبتسمون في وجهي أو يتحدثون إلي . وقد كانت عادة الإخوة الذين يسكنون زنازين الطابق الثاني ، والمسموح لهم بفسحة يومية ، أن يقفوا على سطح السور المقام أمام زنازين الطابق الأرضي التي أسكن إحداها، ويتحدثون إليّ وإلى زملائي . لكنهم صاروا يتحدثون إلى زملائي في الزنازين المجاورة ويتعمدون تجاهلي ، رغم أنني رحت أرتقي البطانية وأنظر إليهم من خلف القضبان مستجديا إياهم أن يحادثوني . أما إذا وجهت إليهم الحديث فأجابوني باقتضاب ، وإذا طلبت أن أحادث أخا معينا قالوا لي إنه لا يستطيع المجئ لأنه دايخ قليلا .

وفهمت أن الجماعة أصدرت أمرا بتشديد الحصار عليّ وعزلي في جسني . فصارت الجماعة التي لجأت إليها طلبا للقوة والمنعة والصحبة ، أداة للعزل والعقاب والشعور بالوحدة . لم أستطع أن أفهم كيف أن يعاب إنسان أخذه الحنين إلى أهله الذين فارقهم للمرة الأولى في حياته ؛ وكيف يعاب من يكره الفشل في دراسته تحت أي من الظروف ؟ ومن حبس بين أربعة جدران ويتعرض لأسوأ أنواع المهانة الإنسانية ، كيف لا يصيبه الغم والاكتئاب ، وحين يسكت لسانه تبوح عيناه ؟ لم أفهم لماذا ينتظرون مني أن أكون إنسانا فولاذيا فوق العادة ، وصبورا كجمل الصحراء ، ولماذا لم يتقبلوني كما أن إنسانا عاديا كسائر خلق الله ؟

كنت أشعر بتوتر قاتل من ملاحظتي أن أحمد ــ وقد أمضى ستة أشهر في السجن ــ يقضي وقته في ممارسة العادة السرية . أكون أنا مشغولا في مذاكرة دروسي فألمح بطرف عيني حركة يده تحت الغطاء الذي يتدثر به . وفي صمت النهار أو سكون الليل أسمع تنهداته من دورة المياه التي هي جزء من الزنزانة . ثم بدأت

المشاجرات والمشاحنات تثور لأتفه الأسباب : فلا لا يستريح إلى فلان ، فلان قال كذا عن فلان ، أو عمرو يظن أن زيدا قد يكون مرشدا للأمـــن .. وأدركـــت أن السجن يقتل أشياءنا الجميلة ويبرز في نفوسنا أسوأ ما فيها ، فاستمسكت بتلابيـــب عالمي الآخر : أهلي ودراستي ووجه الفتاة التي أحبها ، ولولا ذلك لمـــا أطقـــت الحياة في السجن يوما .

كان الوافدون يأتون ويذهبون . كل يوم أرى في الزنزانة وجوها جديدة أو أبحـــث عن وجه فلا أجده ، فأعلم أنه قد استدعي إلى " لاظوغلي" ، وهذا أسوأ ما يمكـــن أن يحدث لمعتقل . ولما طلب المحامي رؤيتي للمرة الأولى ، استدعيت ، فســـألت عن السبب ، فقال لي الحارس " عايزينك في لاظـــوغلي " ، فصـــافحني الإخـــوة كالمسافر بلا رجعة ، وامتلأت خوفا ورعبا . وحين وصلت إلى خـــارج العنبـــر ضحك الحارس وقال : المحامي يريدك . تعجبت كيف يملك الإنسان ميلا فطريـــا لرؤية آلام الآخرين . فهذا الحارس يتطوع لترويعي من دون أن يطلب منه أحـــد ذلك ، ومن دون أن يعود عليه الأمر بأي فائدة . ثم التقيت بالمحامي الذي أعطاني منامة أرسلها لي أهلي ، فوافقت إدارة السجن على إدخال الجزء العلوي منها إليّ. وبعد أسبوعين من إقامتي في زنازين الطابق الأرضي اضطرت إدارة السجن إلى السماح لي بالذهاب إلى العيادة الطبية لتلقي العلاج من سعال شديد . وفي طريـــق عودتي إلى الزنزانة أشار لي أخ من نزلاء الطابق الثاني بأن أتوجه مباشرة إلـــى البوابة الخاصة بهم ، وكأني من نزلاء هذا الطابق ، ففعلت . ولم ينتبـــه حـــراس البوابة ولا طاقم السجن إلى أن أحد رعاياهم في الطابق الأرضي قد غافلهم وصعد إلى الطابق الثاني .

الخروج :

الانتقال إلى الطابق الثاني أنقذني من مخاوفي من سعال مصحوب بدم وتحليل يفيد أنني مريض بالسل . فقد كانت الظروف التي نعيش فيها فـــي زنـــازين الطـــابق الأرضي تبدو كأنها أعدت خصيصا للمحافظة على ميكروب السل من الانقراض :

أربعة أو خمسة أفراد يعيشون في زنزانة مساحتها أربعة أمتار مربعة . شباك التهوية الوحيد الذي يسمح بدخول نور الشمس لم يعد له وجود بعد أن سُد بالأسمنت . تغذية أقل من سيئة ، ورعاية صحية معدومة تسمح بتطور الأمراض البسيطة السهلة العلاج إلى مراحلها الأشد خطورة .

كانت الظروف المعيشية في الطابق الثاني أفضل كثيرا : أخرج للفسحة لمدة نصف ساعة مرة كل يومين . والزنزانة أوسع وبها سلك ينقل طاقة كهربائية ، مكنتني من تسخين مياه الاستحمام ، وذلك بإسقاط طرفي السلك في الماء داخل وعاء من البلاستيك . وفي أحد الأيام كان زملائي خارج الزنزانة وبقيت وحدي فيها ، وحين أردت تسخين الماء أسقطت السلك بطريقة خاطئة فالتصق بجدار الوعاء البلاستيكي فاشتعل وعلت النار ووقفت عاجزا لا أستطيع الاقتراب لأنزع السلك ، ولا أستطيع أن أضرب الوعاء بشيء يخمد النار ، خوفا من اندلاق الماء المكهرب في الزنزانة. وفي الوقت نفسه كنت خائفا من امتداد النار إلى قطع الكرتون التي نفرش بها أرضية الزنزانة . جريت إلى باب الزنزانة المغلق وصرخت "حريقة حريقة ، ألحقوني " . وحين لم يسمعني أحد رجعت حذرا إلى أبعد مكان أستطيع منه أن أسحب السلك ، فسحبته ، ثم ضربت الوعاء بقدمي فانسكب الماء على بعض النار وأطفأها ، وأطفأت أنا الباقي .

الأحداث البسيطة التي تحصل في السجن يحيلها الإحساس بالعجز غولا مخيفا ، تماما كما يرتعد الضرير من صوت غريب ، ويعجز المقعد عن بلوغ شيء يعلو يديه بمقدار شبر .

كنت آنس لزملائي في هذه الزنزانة : طبيب يتحدث بلا انقطاع ، زميل لهجته غريبة وتجعلنا نضحك حتى في لحظات الجد ، وآخر من بني سويف لا يأكل الحلاوة الطحينية التي يحبها لأنها تؤدي إلى الاحتلام . ولما تركتهم لمدة يومين وذهبت إلى " زنزانة الطلبة " وجدت أخا من أولئك الذين بلغوا الكمال ومنتهى الحكمة ، فلم أستطع تحمله وعدت إلى زنزانتي . ثم جاء إليّ أخ كنت أرى وجهه في أسيوط وقال لي إن الأخوة قرروا نقلي إلى زنزانته لإعانتي في الثبات على

الحق وصارحني بأنهم كانوا يفتحون خطاباتي إلى أهلي ويقرأونها ، ولذلك اتخذوا مني موقفهم السابق : التجاهل والمقاطعة .

جمعت أشيائي وانتقلت إلى الزنزانة الجديدة . كان الأخ لطيفا ومهذبا مما جعلني أرتاح إليه وأصارحه بما يدور في ذهني من تساؤلات حول العمل الإسلامي والأخطاء التي يقع الإخوة فيها ، استمع إليّ من غير أن يقاطعني ، ثم قال لي إننا سنتكلم في هذا الموضوع في وقت آخر . ومع زميل آخر سمعته يتحدث عن جماعتين في بلده بني سويف قتلت إحداهما أمير الجماعة الأخرى . ولما استعار كتابا من أحد أفراد الجماعة الأولى يتضمن دليلا شرعيا على أن ما فعلوه كان إثما ، فوجئ بأن هذه الجماعة استخدمت الدليل الشرعي نفسه لإثبات أن قتل أمير الجماعة الأخرى كان واجبا شرعيا . فقد وجد زميلي تعليقا لهذا المعنى كتبه صاحب الكتاب في الهامش .

ابتلعت أفكاري ونمت لأرى في منامي أنني أبكي . كانت الوسادة مبللة لما صحوت على صوت ينادي باسمي في صوت عال ، فابتسم الأخ النائم إلى جواري وقال : ها قد جاء الفرج ، ورددت بتلقائية وأنا بين النوم واليقظة :

" ولرب نازلة يضيق الفتى

ذرعا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فرجت وكنت أظنها لا تفرج " .

ثم نظرت من شباك الزنزانة فقال لي الحارس : أنت ؟ قلت : نعم ، قال : مبروك إفراج يا سيدي ، جهز نفسك .

خلعت ملابس السجن وارتديت ملابسي ، وأخذت نقودي من الأمانات إضافة إلى نقود أخرى أرسلها لي أهلي بواسطة المحامي . ولما اقترب مني أحد الحراس وقال لي " فين الحلاوة ؟ " قلت له " تحبسونني وكما عايزين الحلاوة ! " .

ركبت سيارة الترحيل إلى أسيوط . كنت أنظر من وراء قضبان السيارة فأتعجب أن الحياة تسير كما هي وكنت أظنها لا تسير ، أرى أطفالا يلعبون في زيهم المدرسي فتأخذني الشفقة وتغلبني الدموع .

وأرى رجالا ونساء يتحدثون ويضحكون فأشعر أني من القسوة بحيث أقتلهم ولا أبالي.

لن أنسى ذلك اليوم ما حييت : ١٧ تشرين الثاني ١٩٩١م . في الليل اقتادني ضابط إلى خارج الزنزانة وأمرني أن أنظر إلى الحائط وأرفع يدي عاليا ، فضربني بالعصا وبيده على سبيل التحبب ، ثم اقتادني معصوب العينين إلى مبنى مباحث أمن الدولة . هناك حلوا عصابتي داخل مكتب متوسط الفخامة ، وأجلسني المفتش على الكرسي المجاور لمكتبه وطلب لي شايا ، ثم أخذ يحدثني عن كليتي التي يتهافت الناس عليها ، وعن المستقبل الذي ينتظرني حين أتخرج طبيبا . لكنه آسفا أخبرني بأنه قد صدر قرار بفصلي من كليتي لمدة عام ، فيما هو يناولني ورقة مكتوبا عليها رقم هاتفه ، وطلب من أن أهاتفه إذا حاول أي أخ أن يتصل بي ، أو إذا وصلتني معلومات قد تضر بأمن البلد . قلت إنني لن أحاول أن أتصل بأحد ، ولن أعمل مرشدا ، وسأهتم بدراستي فقط ، فقال لي المفتش إنني قد أخطأت في حق وطني ولا بد أن أكفر عن غلطتي بالعمل لصالح الوطن ، كأي مواطن يحب مصر .

خرجت من المكتب حوالي الثانية صباحا . مزقت الورقة وسرت بخطى سريعة ما لبثت أن تحولت عدوا شديد السرعة ، وأنا أنظر خلفي خائفا من أن يكون الإفراج خدعة ليقبضوا عليّ ثانية قبل أن أصل إلى بيتي . مهما حاولت لا أستطيع أن أصف مشاعري في تلك اللحظات . وقد أقترب من الحقيقة إذا قلت إنني أحسست وقتها ــ وقد كنت أصوليا إسلاميا ــ أن الدنيا أجمل من الجنة ، وأن روح الإنسان معلقة في منقار طائر الحرية .

الفصل الرابع
التمايز

في " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " روى الإمام جلال الدين السيوطي الحديث النبوي الآتي : " جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا . فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتم . إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين " .

وفي كتابه " معالم في الطريق " ، ينطلق سيد قطب من هذا الحديث النبوي ليثبت أن لا التقاء في منتصف الطريق ولا أنصاف حلول بين الإسلام وغيره : فإما إسلام وإما جاهلية ، وليقول إن هذه الفكرة ــ التمايز بين الإسلام والجاهلية ــ التي أصر عليها الرسول ، هي التي خلقت ذلك الجيل القرآني الفريد من الصحابة الأوائل .

وتأصيل فكرة التمايز من أولى أبجديات الجماعات الإسلامية . ومن الأحاديث الأولى التي تعلمها هذه الجماعات لمحازبيها : " من تشبه بقوم فهو منهم " ولا تلبث هذه العبارة أنتصير مسلمة في ذهن كل محازب ليشعر أنه صار مختلفا عن أقرانه وأهله والمجتمع الذي يحيط به .

ففي بدايات عهدي بالجماعة أذكر أن الإخوة القدماء من حولي راحوا ينظرون إلي بريبة حين امتنعت عن الأكل بيدي ، كما يأكلون ، وحين تأخرت عنهم في ارتداء الزي الإسلامي اعتبروني غير ملتزم إلى على نحو جزئي . ولكي أجاريهم في عاداتهم كان عليّ أن أخالف ما تربيت عليه واكتسبته من عادات طوال عمري ، لأتحول كائنا جديدا . وربما يفسر لي هذا لماذا ثار أبي بشدة حين ارتديت الجلباب للمرة الأولى في حياتي ، رغم أن هذا حدث بعد فترة من التزامي مع "الجماعة

الإسلامية" ، وفي وقت كنت أظن أن تفاصيل صغيرة مثل هذه لن تشكل هوية جديدة لي ، لا تنتمي إلى البيت الذي تربيت فيه ، ولا إلى القيم التي نشأت عليها ، ولا إلى المظهر الذي يدل على بيئتي الاجتماعية ، أما أنا فقد شئت بما غيرته من مظهري وسلوكي أن أبعث رسالة لكل من يصادفني في الطريق تفيد بأن لي انتماء جديدا .

ليس ارتداء الزي الإسلامي الذي تشتهر به الجماعات الإسلامية مجرد اقتداء بسنة ما ، بل هو تميز مقصود تصر عليه هذه الجماعات وتعتبره علما لها يضاهي العقيدة في أهميته . فالجلباب الذي كنت أرتديه قد لا يكون سوى زي باكستاني لا علاقة له بسنة النبي ، لكنه علم على تمايزي وانتمائي . والتمايز ــ كما ترى الجماعة ــ دليل على البراءة التامة مما يفعله العصاة ، وتفريق تام بين المؤمنين وغيرهم . وهذا له تفسير قرآني في قول الله تعالى : " وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين "[1]. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى هو : " واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا "[2].وكان الإخوة في الجماعة يقولون إن الغرض من أمر الله اليهود أن يجعلوا بيوتهم متقابلة هو تمييزها عن بيوت العصاة . وما أمرهم بهذا ، رغم علمه أنه سيسهل على أتباع فرعون ملاحقتهم والتعرف عليهم ، إلا دليل على أن في الأمر حكمة عظيمة يعلمها الله سبحانه . ولعل تلك الحكمة ــ إلى جانب التمييز بينهم وبين الكافرين ، إذا نزل بهم غضب الله ــ هي أن يربيهم الله نفسيا على أنهم مختلفون عن غيرهم ، فهم خاصته ومختاروه من بين الناس أجمعين ، كما أن التميز بنمي الولاء والتراحم . وكان الإخوة في الجماعة يضربون لنا مثلا على التراحم ما يقوم به الأقليات في الغربة ، وبين راكبي الدراجات النارية ، إذ أن الأكثر حرصا على مساعدة المصاب في حوادث هذه الدراجات ، هو راكب الدراجة النارية مثله .

---

(1) سورة يونس ، الآية ٨٧ .

(2) " الجامع لأحكام القرآن " للإمام القرطبي .

وكان الإخوة يطلبون من الفرد صراحة أن يحد من علاقاته بغير الملتزمين من أقرانه ، لأن " المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل"[٣] كما كانوا يطلبون أيضا أن يقطع الملتزم علاقته بغير المسلمين ، لأنه " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم "[٤].أما علاقة الأخ ، ملتزم عقيدة الجماعة ، بماضيه فيجب أن تنقطع كما تنقطع العلاقة بين الأحياء الأموات ، لأن " أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي بين الناس كمن مثله في الظلمات "[٥].

وعلى هذا يجب أن تحب وتكره حسب مفعول رجعي : تكره لاعبي الكرة الذين يلهون الناس عن ذكر الله ، والمغنين الذين يعصون الله بالغناء . وتحب الصالحين وتكره العصاة ــ الذين لا تعرفهم على مدار التاريخ كله .

كان الإخوة يشددون على فكرة التمايز حين يسألهم سائل لماذا يصرون على إطلاق لحاهم ، إذا كانت الدولة تتعقبهم ، ثم أليس حلق اللحية جائزا للتقية ؟! ويمتد هذا التمايز ليشمل كل صغيرة وكبيرة في حياتنا ، حتى وإن كانت عادات نعدها من قبل منفرة . وكم كنت أجد صعوبة في تقبل فكرة أن آكل بيدي وأشارك أيادي الآخرين الوعاء نفسه . لكنني فعلت ذلك . وفي جلوسنا إلى الطعام كان علينا أن نجلس جلسة معينة : نثني القدم اليسرى تحت المقعدة ، بينما نجعل اليمنى على هيئة حرف ثمانية . ونأكل بثلاثة أصابع لا باثنتين كالمتأفف ، ولا بخمس كالمنفر . ونشرب الماء ثلاث مرات ، ولا نستخدم اليد اليسرى في الأكل أو الشرب . وندخل إلى الحمام بالقدم اليمنى ونخرج منه بالقدم اليسرى ، وندخل إلى الحمام بالقدم اليسرى ونخرج منه بالقدم اليمنى .

وكنا نرتدي قمصانا (جلابيب) قصيرة لا طويلة ، فلا تبدو علينا مظاهر الاختيال . ونطلق لحانا بلا تهذيب أو قص ، إلا ما زاد على قبضة اليد ، ونقص الشوارب لكي نخالف المجوس ! ولا ننتف الحواجب كي نخالف النساء . ولا نطيل شعورنا

---

[3] رواه أبو داود والترمذي .
[4] سورة المجادلة ، الآية ٥٨ .
[5] سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

(رغم أن إطالة الشعر سنة) كي نخالف الشباب المائع المستهتر . ولا نصفر بأفواهنا كي نخالف الكفار الذين كانوا يصفرون حول الكعبة . لكننا كنا نستخدم المسواك ونتعطر بعطور معينة وما شابه . وإذا سرنا تواضعنا في مشيتنا حتى لا تبدو كمشية المختال الفخور " ولا تمش في الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا "[٦].

ونتمايز في تصورنا للكون والأحداث من حولنا ، فنحن المؤمنون موقنون أن الطاعة والمعصية هما كفتا الميزان في أحداث العالم . فالاقتصاد المزدهر يأتي للمسلمين من الطاعة ، والفقر والحاجة يأتيان مع المعصية " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون "[٧].والصراع في العالم طرفاه أهل الإيمان وأهل الكفر . ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها . فالتاريخ بالنسبة لنا هو صراع دائم بين الكفر والإيمان . واليهود الحاليون أعداؤنا لأنهم لم يقبلوا رسالة الإسلام ، أما اليهود أيام الفراعنة فأولياؤنا لأنهم مؤمنون . والتاريخ الإسلامي هو تاريخ لأفكار الناس ومدى موافقتها للعقيدة السليمة ، وليس تاريخا لظروفهم وحاجاتهم الاجتماعية ، فلا مانع من بعض المظالم ما دامت العقيدة سليمة . وحين ندرس تاريخ الفرق الإسلامية لا ندرس أسباب نشأتها اجتماعيا ، بل مدى موافقة عقيدتها للكتاب والسنة ، لينقسم العالم كله ، قديما وحديثا ، إلى فريقين : مؤمنون وكفار ، وحديثا ، انتصر المؤمنون الأفغان على الكفار الروس لأن الملائكة كانت في صف المؤمنين . وعلى شريط الفيديو الخاص بالحرب الأفغانية يروي أحد المجاهدين كيف ألقى حجرا على دبابة روسية فانفجرت ! أما لبنان فالحرب الأهلية اندلعت فيه لأن الفساد استشرى : " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا "[٨].

---

(6) سورة الإسراء ، الآية ٣٧ .
(7) سورة الأعراف ، الآية ٩٦ .
(8) سورة الإسراء ، الآية ١٦ .

وتصورنا المتمايز ما كان يقتصر على التاريخ بل يمتد إلى الجغرافيا . فالأعاصير التي تصيب الولايات المتحدة من فترة إلى أخرى هي غضب من الله . والـــزلازل التي تضرب الأرض إنذار من الله للناس بأن أمره قريـــب . والمطـــر المنحـــبس ابتلاء من الله لا يرفع إلا بدعاء الصالحين . ومرض الإيدز عقاب من الله ، رغم أن الطاعون أصاب المسلمين الصالحين قديما أكثر من مرة . وحين نسأل لمـــاذا يرفل الغرب الكافر في الخيرات ؟ تكون الإجابة : لأن الله أعطاهم الدنيا وأعطانا الآخرة .

وليس هذا التمايز بدعة ابتدعها الإسلاميون المحدثون، بل هي كما أشرنا من قبـــل سنة في كل الأديان التي لا تختلف كثيرا في أصولها العقائدية وتلجأ إلى التمـــايز في المظهر والسلوك كي لا يقول قائل : ما الجديد الذي أتى به هذا الدين أو ذاك . والإسلام منذ البدء شدد على هذا التمايز الذي تسميه كتب التراث " مخالفـــة أهـــل الكتاب " .

ولا تتوقف عجلة التمايز لدى الأصوليين . فبعد التمييز بـــين الجماعـــات يتمـــايز الأفراد داخل الجماعة في صورة موازية لـــ " الجماعة الإسلامية " الأولى التـــي مايزت بين الناس بحسب نضالهم . فغفرت لبعضهم تهمة الخيانة العظمـــى لأنهـــم ممن شاركوا في موقعة بدر ، على ما ورد في " سنن أبي داود " في حادثة حاطب بن أبي بلتعة . وكما جرى في تفضيل آل الرسول " أهل البيـــت " علـــى ســـائر العالمين ، وتفضيل القرشيين على غيرهم ، كذلك كان الإخـــوة داخـــل الجماعـــة مصنفين حسب نضالهم . فهذا من " إخوة ٨١ " ، الذين شاركوا في محاولة قلـــب نظام الحكم أو اتهموا بها . وذاك ممن شاركوا في تنظيم كذا . ومـــا أن تتعـــرف على أخ جديد حتى يشار إلى أنه من إخوة الصف الثالث في المنيا . ومعايير هـــذا التصنيف تعتمد على تقدير قيادات الجماعة لمستوى السمع والطاعة عند هذا الفرد أو ذاك ، إلى جانب ما يعرف عن تقواه وورعه . وذات مرة خرج أخ قيـــادي ـــ في الثالثة والعشرين من عمره ـــ غاضبا من مباراة في كـــرة القـــدم ، لأن أحـــد الإخوة المشاركين في المباراة تعمد إلقاء الكرة على جسده وهو يؤدي رمية تماس.

وقد سمعت الأخ القيادي يقول فيما هو يغادر الملعب " ما بقاش فيه احترام خالص".

لكن المثير للتساؤل حقا أن هذا التمايز بين الجماعة والمجتمع يترافق مع قمع تام لأي محاولة فردية يقوم بها أي أخ ليظهر مختلفا عن الآخرين ، حتى في نطاق التصرفات المسموح بها شرعا ، فالجماعيون ينظرون إليك بريبة إن كنت تكثر من ارتداء زي غير الزي الذي اعتبروه إسلاميا . وقد يعتبرونك متأففا إن أصررت أن تأكل مستخدما ملعقة ، فيقول لك قائلهم : إن أفضل منك كان يأكل بيده (يقصد النبي محمد).

و"الجماعة الإسلامية" لا تقتل المخالفين فيها إلا في ظروف معينة ولدواع حركية ، كإفشاء أسرار التنظيم أو التجسس لصالح أجهزة الأمن . وعلى ما أعلم لم يحصل في الجماعة حادثة من هذا النوع .

والنبذ هو سبيل الجماعة إلى قصاص المخالفين من أعضائها . أما الذي تتكرر مخالفاته " الشرعية " فيلزم بحلق لحيته دليلا على حرمانه من التميز في المظهر والسلوك الذي اختارته الجماعة لنفسها ، ثم تصدر أمرا بمقاطعته واعتزاله . أما المسيحي الذي يطلق لحيته ، على سبيل الخيار الشخصي الحر ، فيتعرض للضرب ، بينما يكتفى بإنذار المسلم الذي يفعل ذلك وهو غير ملتزم دينيا.

ولعل أكثر ما آلمني حين اضطررت مرة لحلق لحيتي وأنا في السنة الجامعية الأولى ، هو افتقادي لذلك التميز ، رغم ما قد يجره عليّ إطلاق لحيتي من مشاكل مع رجال الأمن وحرمان من دخول الجامعة . لم أستطع أن أتقبل كوني أشبه الجميع في أي مسجد أذهب إليه ، وأن الناس وهم يصطفون للصلاة ينتظرون تقدم أحدهم للإمامة لا ينظرون إليّ قائلين " اتفضل يا شيخ " . وذهبت مرة حليقا إلى شاب يتحدث مع فتاة في الجماعة وطلبت منه أن يتوقف عن الحديث معها كما تعودت . وبدلا من الاعتذار إلى بتبرير معين ، كما اعتاد الطلاب أن يفعلوا ، نظر إليّ مستهزئا وقال " أنت مين ؟ " . وهكذا لم أتحمل أن أكون حليقا ، فأطلقت لحيتي ، غير مكترث بالعاقبة .

وعلى قدر ما كان ذلك التميز يغريني ويشعرني بالاختلاف حين كنت ملتزما ، فإنه أورثني بعد ذلك هوسا بالاختلاف وكرها له في آن واحد ، حين أدركت أنني مجرد فرد عادي ليس عندي ما أتميز به ، فتحولت تلك الرغبة في الاختلاف والتميز إلى أمور تافهة ، كتجنب إرتداء أي شيء شائع . أما كرهي فترجمته إلى حساسية مفرطة في وجهي ، لكثرة ما رحت أحلق مرات لحيتي في اليوم الواحد ، كأنني أردت أن أمحوها من على وجهي تماما . واحتجت لفترة بعد انفصالي عن الجماعة لتقبل حقيقة أنني فرد عادي لا يلجأ الناس إليّ في فتوى أو رغبة في الاعتراف بالذنوب وطلب النصيحة . كما أنني احتجت إلى بعض الوقت للتعود على مظهري الطبيعي وكلماتي العادية التي تشبه كلام كل الناس .

خاتمة

أستطيع الآن أن أنظر خلفي إلى كل تلك الأحداث وأسترجعها وأحكيهـا ، وأدرك بعض دلالاتها ، بينما تخفى عليّ دلالات بعضها الآخـر . لكـن قبـل أعـوام ، وبالتحديد ابتداء من تشرين الثاني ١٩٩١م ولمدة خمس سنوات بعدها ، لـم أكـن أستطيع أن أدرك شيئا من ذلك . لقد كنت كالمستيقظ من حلـم يشـعر بـأثره ولا يستطيع تذكر تفاصيله .

ولا أدري على وجه التحديد كيف تغير المسار ، فقد كنت مقتنعا ، حتـى بعـد أن تركت الجماعة فعليا ، أن هؤلاء القوم على حق وأن الله ناصرهم عاجلا أو آجـلا ،لكنني تخليت عن السير في طريقهم . ثم تخليت عن عادة القراءة التي حملتها كل ما حدث لي ، وعقدت العزم على أن أعيش حياتي كما يعيش الناس ، أصلي فـي البيت وأشاهد التلفزيون ، وأذهب إلى مباريات الكرة . وفكرت في تكوين رابطـة لتشجيع النادي الأهلي المصري لكي أملأ وقتي ، وصرت مواظبا على حضـور تدريبات الفريق . ومرت سنتان كاملتان وأنا على هذه الحال .

لكنني بعد قصة حب رومانسية أحسست أنني لم أعد أي شيء . فـلا أنـا " الأخ خالد" الذي يحفظ كتاب الله ويحافظ على سنة رسوله ، ويجاهد من أجل إقامة دولة الإسلام ، ولا أنا أملك مقومات الشاب " المودرن " الذي خبر مهارة العلاقات مـع الفتيات . فقد احتفظت بطبعي الجاد الخشن رغم كل التنازلات . والحـب عنـدي أبيات من الشعر العاطفي الساذج أكتبها وأحاول أن أمهد الظروف لأقرأها علـى من أحب علها تشعر بي !

ولفشلي في تجربة الحب التي عشتها بعد خروجي من صفوف الجماعة ، أسـرفت في لوم نفسي على ما آلت إليه أموري . فكيف لصورة شخص واحد كائنا من كان هذا الشخص ، أن تملأ عليّ حياتي كلها ، وأقضي الوقت كله مـع طيـف هـذا الشخص الغائب ؟!

حين أحببت وأنا أخ ملتزم كنت أحس أنني نسر علمه عصفور كيف يحب السلام ، أما حين أحببت من دون أن أكون ملتزما ، فشعرت أنني عصفور تعلم في القفص ألا يكترث بحريته .

تركت القاهرة بعض الوقت وسافرت إلى أسيوط ونفضت الغبار عن "مكتبة الجاهلية" أو مكتبة البيت التي لم ألمسها طوال فترة التزامي . أخرجت بعض كتب توفيق الحكيم وبعض روايات نجيب محفوظ إضافة إلى كتب سياسة وبدأت أقرأ بنهم . كانت تلك فترة محورية في حياتي . لأول مرة أكتشف أن العقل الإنساني يفكر بصورة ما خارج النص الذي يقرأه ، وبعيدا عنه . قد يكون هذا شيئا بديهيا بالنسبة لكثيرين ، لكنه لم يكن بديهيا بالنسبة لي آنذاك . وأعدت الكرة مرة أخرى مع كتب من الثقافة المحدثة ، ومع أخرى دينية كنت قد قرأتها قبل سنوات . وفي كل يوم رحت أقرأ كتابا ، شعرا أو أدبا أو نقدا أو سياسة ، ثم التحقت بزملاء لي في الجامعة يعقدون معا لقاء أدبيا نهار كل أحد .

كان بينهم متدينون ويساريون وآخرون من دون أي انتماء . ومع هؤلاء تعلمت معنى الكلمة وكيف تكون دالة دلالة مختلفة . تعلمت أن أنتقد وأبرر انتقادي ، وتعلمت الفرق بين كلمة تصلح للخطابة ، وأخرى تصنع إيقاعا ، وكلمة تصنع فنا وتفجر معنى .

مع صديقي اليساري حسن تعلمت متعة الشك . الشك في جمال نص الشاعر ، وفي جمال الموروث وجمال الكلمة ، والشك في المعارف المستقرة في ذهني ، والشك في صواب اختياراتي في الحياة . ومع حسن تملكتني الرغبة في البدء من جديد في اتجاه جديد ، فقررت أن أغير مسار حياتي التي لا تعني أحدا غيري ، قررت أن أكون صحافيا وكاتبا لا طبيبا كما كان مرسوما لي من قبل .

وعلمني الشك التفكير في الآخر . الآخر الذي في أثناء عبادتنا وأحلامنا ننكر عليه أحلامه ، ونحتقر أبطاله فيما نمجد أبطالنا . لذا قررت التعرف على الآخرين ، فاشتريت الكتاب المقدس وواظبت على الاستماع إلى شرحه في إذاعة " مونت كارلو " يوميا . واشتريت كتب كل أعدائي القدامى لأقرأها للمرة الأولى ، وحافت

على شراء مطبوعة يصدرها " مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية" في سلسلة " كراسات إسرائيلية " . وهي مطبوعة تعنى بإعادة نشر مقالات في الصحف الإسرائيلية حول شؤون عربية . واستهوتني لعبة محامي الشيطان ، ومحاولة فهم الآخر وتخيل مشاعري لو كنت أنا ذلك الآخر . ثم استخدمت ميراث الجماعة وتجربتي فيها لأعري نفسي بنفسي . وشيئا فشيئا بدأت أشعر بأنني لست على استعداد لأن أقتنع في شيء ، إن لم أقتنع شخصيا به . يستوي في ذلك أدائي فرائض الصلاة وغيرها من العبادات التي قررت أنني ورثتها عمن سبقني ، ولن ألتزم بها إلا بعد فترة حياد أفتح فيها قلبي وعقلي لكل فكرة . وصرت في ذلك الوقت أكثر أخلاقية مما سبق . كأنما لأؤكد لنفسي أنني لست فاسقا ولا أتحلل من التزاماتي جريا وراء شهوتي . وفي تلك الفترة أيضا صرت نباتيا لا أقرب اللحم تأثرا بالفكرة الهندوسية عن التناسخ وحلول الأرواح ، واقتناعا مني بأن ذلك يساهم في سمو الروح ووضوح الفكرة ويعلي الإنسان فوق رغباته العادية اليومية .

وأقبلت في تلك الفترة على قراءة السير الذاتية ، والتمعن كثيرا في ما ترويه ، كأنما أريد أن أعيش الزمن بعد اختزاله في صفحتي كتاب . وكنت أحس أن القراءة في بعض الأحيان خداعة لما فيها من تلاعب بالزمن وتلق مختلف للأحاسيس . فالألم القاتل يوشك أن يقتل صاحبه قد يعظم لدى القارئ ذي الإحساس المرهف ويجعله يذرف دمعتين مثلا . ولحظات الكفاح المضني والقلق المحطم قد تترجم لدى القارئ المهتم بقشعريرة في جلده أو اتساع في حدقة العين ... فقط ، لا أكثر !

كانت قراءتي السير الذاتية في تلك المرحلة تطمئنني وتشعرني أنني لست وحدي ، وتعوضني عن ذلك الدعم الذي كنت أحسه وأنا فرد في جماعة تعتنق كلها الأفكار نفسها وتمارس العبادات نفسها . وكانت القراءة تزيدني يقينا بأنني لست نبتا شيطانيا ، وأفكاري ليست هي الأخرى نبتا شيطانيا ، وأن آخرين ساروا كما أسير عكس تيار الاستسهال ، وبنوا أفكارهم عبر جهد شخصي بعيدا عن الإرث الجاهز المتلقى بلا عناء ، واستطاعوا أن يبدعوا بعقولهم وتفكيرهم إرثا بشريا أدبيا وثقافيا

وفنيا وأخلاقيا متنوعا . كما كانت السير الذاتية تمنحني صبرا وأملا ، لا سيما حين أكون في مواجهة اختيارات صعبة ، فأشعر أن لا شيء سيكون نهاية المطاف وأن الحياة سوف تسير في الأحوال كلها .

انعكس اختلاف فهمي للحياة على جوانب أخرى بعيدة عن الثقافة والأيديولوجيا . صرت أعشق الأفلام الأوروبية ذات الإيقاع البطيء الهادئ ، وكذلك الاهتمامات الإنسانية البسيطة التي تغوص في عمق نقطة صغيرة أو خاطرة عارضة فتجعل منها هما إنسانيا كبيرا . ولم أعد أتحمل الأفلام الأمريكية الساذجة الشبيهة بقصص الأطفال عن الصراع بين الخير والشر الذي ينتهي دائما بانتصار الخير . ولم أعد أتحمل أيضا صناعة الأبطال النموذجيين الخارقين للعادة الذين تجللهم هالات القداسة.

ولا أنسى أن فيلما بسيطا لم يستطع معظم المتفرجين تحمله حتى نهاية العرض غير نظرتي إلى الحياة ومعنى المتعة كما لم يفعل ما تعلمته في خمسة وعشرين عاما هي عمري كله وقتها . والفيلم هو " وليمة بابيت" الذي يحكي عن خادمة لأسرة متدينة متزمتة تحرّم الرقص والغناء والمتع الدنيوية . ورثت تلك الخادمة ثروة طائلة من قريب لها وذهبت للحصول عليها ، ثم أقامت لمخدوميها وليمة في هذه المناسبة . وينتقل الفيلم بطريقة شاعرية بين مفردات الطعام وهو يعد ، وبين تعبيرات وجوه المبدعين الجدية فيما هم يأكلون لينتهي بهم الأمر ، بعد أن وافقوا على شرب بعد الخمر ، إلى الرقص والغناء والبوح الذي يكشف عما في نفوسهم الطيبة . وفي النهاية يسأل أحدهم الخادمة ماذا ستفعلين بالثروة ، فتخبره أنها أنفقتها كلها على تلك الوليمة ، وأنها سعيدة لأن ذلك كان أفضل ما يمكن أن تفعله بها .

في تلك الفترة أيضا شاهدت لأول مرة فيلما جنسيا صريحا أصابني بالقرف والاشمئزاز ، مما جعلني أقلع عن مشاهدة مثل تلك الأفلام طوال عام . وربما كان هذا نتيجة خلل في إدراكي العام للحقيقة . فقد تربينا في مجتمعنا على أمور ظن من علمنا إياها أنه يجمل الحياة لنا ، ومن هذه الأمور ممارسة الجنس . لقد أوحي

لنا أن الجنس عمل من أعمال الجنة يُمارس على ضوء الشموع وأريج الزهـــور ، بعد أن يتعطر الرجل ، وتضمخ المرأة جسدها بالطيب . لذا صُدمت لما رأيت في الفيلم الإباحي السائل اللزج للرجل بين فخذي المرأة ، وكذلك تبادلهما الانفعـــالات الصاخبة غير الرومانسية . ثم إني صدمت كذلك حين مارست الجنس في المـــرة الأولى واكتشفت أن ملمس الجسم يختلف عما كنت أتخيل ، وأن الفعـــل الجنســـي يختلف تماما عما كنت أتخيل وأن أسباب الرضا أو عدمه تختلف عما كنت أتخيل. لقد أزال ذلك الفيلم الجنسي الإباحي الضباب عني عيني شاب تربى على الأوهام . وكم أنا ممتن لتلك الفتاة التي تعرت أمام الكاميرا لتمسح السائل المخـــاطي عـــن فخذيها . فهي مسحت بذلك قسطا من أوهام مخيلتي ، وشيئا من المحرمات التـــي تكبل عقلي وحواسي ، كما حلت عقدة لساني .

وهكذا أقبلت على الحياة حائرا خائفا ، فرحت ألفظ كلمات قبيحة ، وشربت الخمر ، ومارست الجنس .. فإذا بي إنسان مختلف تماما عن ذاك الذي كنته ، أفضل أو أسوأ ، ما عاد يهمني ، لكنني بالتأكيد أكثر تسامحا وإحساسا بإنســـانيتي وإنســـانية الآخرين .

http://www.daralnadwa.com